قصص قصيرة

المُنعطف المُضاء

عصام حمد

المُنعطف المُضاء

قصص قصيرة

للكاتب عصام عادل حمد

المدونة الإلكترونية للمؤلف

www.issamhamad.blogspot.com

بريده الإلكتروني

issamhamad@hotmail.com

صفحتُه في الفيسبوك

www.facebook.com/Issam-Adel-Hamad

الحقوق محفوظة بالكامل بموجب قانون الملكية الفكرية

لا يسمح بطباعة الكتاب أو التعديل عليه أو الإضافة له أو الاقتباس منه أو التصرف به من غير الرجوع إلى المؤلف

الطبعة الاولى الورقية لهذا الكتاب كانت في تموز 2004 دار عشتروت للنشر والطبع والتوزيع
ISBN 9953-0-0310-6

تنسيق وتنفيذ النسخة الإلكترونية الاولى في صيغة PDF
بلال الحسيني bilalo25@gmail.com
شباط 2017

# الفهرس للانتقال السريع إضغط على العنوان	رقم الصفحة
سيرتي الذاتية	4
المَيْتُ الذي أبى أن يُدفَنَ	7
الغريم	11
محفوظ	17
اليدُ القويّة	23
المريض 152	27
البوّابة المُغلَقة	36
ذلك اليومُ السعيد	38
الدائِنُ	44
المُنعطَفُ المُضاء	47
المروحة الغالية	51
دُنيا اليقظة	55
الدُّخان	57
الصورة	62
إصابة	64
الكنباتُ الجديدة	67
المسابقة	78
الشاهدة	82
كتابٌ ليس للقراءة	89
ألم الركبة	91
الشجرة الحسود	96
طبق البطاطا	98

سيرتي الذاتية

عصام عادل حمد- قاصٌّ وروائيٌّ لبناني. أسكن في دوحة عرمون. أحمل إجازةً في العلوم السياسية والإدارية من الجامعة اللبنانية. متزوّج ولي ولدان صغيران، مُؤمنان بعبقريَّتي الأدبيَّة- أقصُّ عليهما حكاياتي قبل النوم!

مجموعتي القصصية هذه هي الأولى لي، وكانت صدرت ورقياً في 2004 وقد اشتهرت منها قصتي القصيرة "الميت الذي أبى أن يُدفن"- مطلُعها:

لم يجرِ له في خاطرٍ أنَّه هو نفسُه قد مات. وأنَّ عليه- كما درجت العادةُ في الناس- ألّا يفتحَ عينيه- بعد تلك السَّقطة المُميتة- ولا يرفعَ رأسه، ولا ينتصبَ واقفاً، ثم يمضيَ في سبيله- كأنَّه ما زال معدوداً من الأحياء!

وقصة "نبيهة"، المرأة التي تشعر بالوحدة إذ يغيب عنها زوجُها كلَّ ليلة في عمله حارساً للمخازن، فتحاول أن تُبقيه إلى جانبها بالحيلة. تقول له ذاتَ صباح لدى عودتهِ إلى البيت وجُلوسه معها يتناول الفطور:

- جاءني بالليل رجلٌ غريب وسأل عنك!

يتوقَّف أدهم عن مضغ اللقمة في فمه ويسألها:

- أيُّ رجل؟

ويبقى أدهم في البيت لياليَ عديدة منتظراً الرجل الذي اخترعته مخيِّلة زوجته. لكنه لا يسهر معها، بل مع رفاقه في الفسحة وراء البيت! وتُجنُّ نبيهة، فتُمزِّق القميص عن صدرها وتصرُخ بأعلى صوتها من داخل البيت. وإذ يهرع إليها زوجُها وصاحبُه ويَريانِها على هذه الحال تُشير إلى الباب المفتوح وتقول باكية:

- جاء الرجل نفسُه وحاول..

أما قصة "محفوظ" فتحكي عن الشاب الذي آمنَ بأنه لن يُصيبه مكروهٌ مهما كان! يعبُر

الطريق العام غيرَ مُنتبهٍ للسيارات حتى إذا جاءته سيارةٌ مسرعة لم يَجِد عنها! وتتوقَّف السيارة أمام الشاب وقد صمَّ أزيزُ فراملها آذان المارة– لا يفصلها عن صدمه أكثرُ من شبر. فيُخرج السوّاق رأسه من نافذة سيارته وهو يلعن محفوظ ويسبُّه متَّهماً إياه بالجنون. وأخيرا يلتفت إليه محفوظ:

– أعتذر منك يا سيدي. لكنك أحرقتَ فراملك من غير داع. كانت السيارة ستنحرفُ عني من تلقاء نفسها لو لم تُوقفها!

ومجموعتي القصصية الثانية "أوّل آكلٍ للحم الحيوان" في 2008– وهي من نوع الأدب الإيروتيكي الرمزي– أشهرُها القصة القصيرة التي يحمل الكتابُ عنوانها– وهي قصة فتى مُراهق اسمُه ياسر، يعيش في قريةٍ لا يأكل أهلُها إلا الطعام النباتي، في حين يشعر هو بالرغبة في أكل لحم الحيوان– رغبةٌ دنيئة ما إن تشتبهَ فيه أمُّ عباس حتى تجمع سمكاتها من البركة المكشوفة في العراء، وتضعهنَّ في الداخل، بحوض زجاجيٍّ كبير. وأبو أحمد منع إوزّاته البِيض من أن يَسرحنَ في العصارى خارج سور الحديقة.. حتى كان يومٌ قصدت فيه أمُّ نعمة منزلَ آل ياسرٍ صارخةً هادرةً:

_ يا أمَّ ياسر.. ضبطتُ ابنكِ يعضُّ فخذَ دجاجتي!

وفي المجموعة أيضا قصة "المتعرية"، الحكاية الشهيرة للفتاة التي "نزلت إلى الطريق عارية لا يستر بدنها شيء!"

أما روايتي الجريئة جداً "في وجهك يا وقح" فهي التي فيها بشَّرتُ بالتعرِّي أسلوبا من أساليب الاحتجاج السياسي، أي تعرِّي النساء لغايات سياسية بعيدة عن الإغراء والإباحيَّة– إذ كنتُ فيها أوّل من كتب عن الموضوع في العالم العربي قبل تعرِّي الناشطة المصرية علياء المهدي، ومن بعدها التونسية أمينة تيلر وأخريات غيرهما. وقد نشرتها مُسلسلةً في مطلع 2011 في موقعي بالشبكة العنكبوتية إذ لم يتجرَّأ أحدٌ على نشرها!– تحكي قصة ثلاثة فتيان لبنانيين، من طوائف مختلفة، يقرّرون– في الفترة التاريخية منذ اغتيال الرئيس رفيق الحريري حتى تولي ابنِه سعد الحكومة أول مرة– سنوات خمس– أقول: يقرّرون مواجهة الوقاحة السياسية على المنابر بوقاحة أشدَّ. فيطلبون إلى زميلتهم "رجاء" أن تتعرَّى... من أشهر فصول هذه الرواية: 7 أيار

كاريكاتيري، وزعران تموز ونادي الشرق الأوسط الجديد للتعرِّي لصاحبته كونزاليزا رايس، ومُظاهرة الأثداء عند تقاطع بشارة الخوري في بيروت تحت شعار "من عُبِّنا إلى جَيب السنيورة": المُظاهرة التي تحتجُّ فيها اللبنانيَّاتُ- بأثدائهنَّ العارية- على ضرائب فؤاد السنيورة، وكان وقتَها وزيراً للمالية، بحيث أنه لم يُبقِ ليرةً في عُب امرأة!
أما روايتي الأخيرة فهي "أُمُّ 44 عين الرمانة" عن الحرب الأهلية اللبنانية 75 والاجتياح الإسرائيلي 82 والبدء بتحرير الجنوب واتفاق الطائف- كل ذلك مُعبِّراً عنه بالحشرات والحيوانات! ولما لم أجد من يتجرَّأ على نشرها هي الأخرى في لبنان- لأنني "قد جعلتُ من اللبنانيين حشراتٍ ومن أمراء الحرب وحوشاً"- فإنني ترجمتُها إلى الإنجليزية ونشرتُها خارج الوطن الذي تحكي تاريخَه- بعنوان جديد هو
The Palestinian Centipede

المَيْتُ الذي أبى أن يُدفَنَ

لم يَجْرِ له في خاطر أنّه هو نفسُه قد مات، وأنَّ عليه . كما درجت العادةُ بين الناس . ألاّ يَفْتَحَ عينَيه بعد تلك السّقْطة المُميتةِ ولا يرفعَ رأسَه، ولا ينتصبَ واقفاً، ثم يواصلَ سيرَه كأنّه ما زال معدوداً من الأحياءِ!

لم يَشْهَدْ أحدٌ سقطتَه.

كان يعمل في مشروعِ بناءٍ في ضاحية المدينةِ. انصرف العمال عند انتهاءِ الدوام. أما هو فأَصرَّ على إتمام العمل الموكول إليه قبل انصرافه.

وكان يصعد السلّمَ حاملاً حَجَراً ثقيلاً يريد تثبيتَه في أعلى الجدار الذي يَبْنيهِ، عندما فقد توازنَه بغتةً لتخلخل السلم العالي . ولم يكن من الزملاءِ من يسنده . فسقط إلى الأرض.

ولكنْ لم يشهدْ موتَه أحد.

لذلك فتح عينيه، ورفع رأسَه ثم انتصب واقفاً ومضى في طريقه.

بلغ شقّتَه التي كان قد استأجرَها منذ أعوام لدى هبوطِه المدينة من قريتهِ سعياً وراءَ الرزق. فاغتسل من تعب النهار، ثم راح يُعِدُّ طعامَه. عَجِبَ لإعراض نفسِه عن الأكل، بعد يومِ عملٍ طويل. وترك المائدة من غير أنْ يتناول لقمةً. ومضى فتمدَّد على فراشِهِ في قيلولتِهِ اليوميّة.

ولكنّه لم يستطعِ النومَ. وبدا كأنَّ يقظةً غريبةً لم يعهدْها من قبلُ قد فتحتْ أجفانه. ظلَّتْ عيناه مفتوحتينِ تُحملِقانِ في سقف الغرفة. ولم يخطر في باله خاطر. وعندما انخفض النورُ بالحجرةِ مؤذناً بالمغيبِ نهض الشابُّ من فراشِهِ. فمضى إلى خزانة ملابسِهِ. وانتقى أَجْدَتَها وتأنَّق ثم غادر شقّتَه . كما كان يفعل كلَّ مساءٍ . لزيارة بيتِ خطيبته.

فتحتْ له خطيبتُه البابَ. استقبلتْه بشوقِ الموعودةِ بحياةٍ جديدة، وهي تقول في عتاب:

_ تأخّرتَ عن موعدك على غير عادة.

استغربتْ جمودَه ونظرةَ عينيه الغائبة، فهتفتْ به:

_ ما بك واقفاً هكذا؟ ادخُل!

وإذِ استبطأتْه أخذتْ بيدِهِ فشدّتْه إلى الداخل وهي تتمتم في عجب:

_ أنتَ غريبٌ اليومَ!

ثم أحَسَّتْ برودةً في يده، فساءلتْه:

_ ما ليدك باردة؟

ولكنه لم يُجِبْ.

قادتْه إلى غرفة المعيشة حيث استقبله عمُّه بترحابٍ هاتفاً كالعهد به:

_ أهلاً بالعريس! كيف الصحة وكيف الشغل؟

فسلَّم الشابُّ على عمِّه وعلى امرأة عمِّه وقعد.

وجاءت الفتاةُ بالقهوة وجلستْ إلى جانب خطيبها. ودار الحديثُ كالعادة حولَ المستقبلِ والزواجِ الموعود.

وقالتِ امرأةُ عمِّه مُشجِّعةً:

_ شُدَّ هِمَّتَك حتى نفرح بكما ونرى لكما ولداً.

ولدى ذهابه همستْ له خطيبتُه عند البابِ في شيءٍ من التأنيب:

_ لم يُعجبْني جمودُك الليلةَ. لم تكن كما عهدتُك. أُحِبّ أن تأتيني أكثرَ حماساً!

وفي صباح اليوم التالي وصل إلى الورشة متأخِّراً بعضَ الوقتِ. وهذا ما لم يكن يحدثُ من قبل. ولاحظ الزملاءُ في حركته شيئاً من البُطْءِ والتصلُّب.

لم يستطعْ وضعَ حجرٍ على حجر. ولاقى في ذلك تهكّماً من الزملاء وانتقاداً من ربِّ العمل الذي قال له مُستغرِباً:

_ لطالما كنتَ مثالاً للعامل النشيط فماذا جرى لك؟ لعلَّك في حاجةٍ إلى الراحة. اذهب الآن إلى بيتك فاسترح، ثم عُدْ في الغد.

فمضى الشابُّ من غير أن يقول شيئاً. وعلَّق بعضُ العمال ساخراً:

_ لم يَعُدْ هذا الشابُّ صالحاً للعمل في البناء!

تتالتِ الأيامُ وسمعةُ الشابِّ من سيءٍ إلى أسوأ، في الحيّ الذي يسكن فيه، وفي الورشة، وفي منطقةِ بيت خطيبته. وتجنَّبه الناسُ لكراهةِ رائحتِه وبشاعة صورته.

أما هو فسار بين الناس كالغائب عنهم، غائرَ العينينِ، مهزولَ القوام، متقلّصَ الجلدِ، تنبعثُ من جسدِهِ رائحةٌ نتِنة.

وطُرِد من عملِهِ بدعوى عدم الصلاحية. وأنذره مالكُ شقته برميه خارجاً لتأخُّره في دفْع الإيجار. وأغلق والدُ خطيبتِهِ البابَ في وجهه بحُجَّة أنه لم يَعُد قادراً على صُنْعِ مستقبلٍ لابنته.

وشيَّعتْه الفتاةُ من النافذةِ بنظرةٍ دامعة.

وتوالتْ شكاوى المواطنين على البلديّة في شأنِ ذاك الشابِّ الكريه. فطالبَ قومٌ بحبْسِه، وآخرونَ طالبوا بنفْيِه لإراحةِ الناس من منظرِه ورائحته. وتمادى كثيرونَ فادَّعَوا بأنَّ هيئة الموتِ باديةٌ عليه، ثمّ غالَوا في التشنيعِ عليه فقالوا بأنّه مَيْتٌ بالفعل، وأنه ينبغي أنْ يُغَيَّبَ في قبر. وحَمَّلُوا البلديّة واجبَ دفنهِ، واتهموها بالتقصير في ذلك.

ودعا رئيسُ البلدية إلى اجتماعٍ طارئٍ لأعضاء بلديته للنظر في مطالب أهل البلدة. انعقد المجلس البلدي في جلسة عاجلة. توافقت آراءُ الأعضاءِ في الشابِّ مُردِّدةً أصداءَ ما يقوله الناس: بشاعة المنظر. نتانة الرائحة. الغيابُ مع ثِقَل الحضور.

إذ ذاك قال رئيس البلدية بجديّة:

_ وقد وَرَدتْنا مزاعمُ كثيرةٌ تُؤكِّد أنه مَيْتٌ، وليس مَن يدفنُه!

فأَيَّدَ أحدُ الأعضاءِ هذا الرأيَ قائلاً في توكيد:

_ نعم. أقول إنه مَيْت. فإني رأيتُه مرةً جامداً كالأموات.

وقال آخرُ بصدق:

_ الحقّ أني لم أَلْقَه قط. ولكنّ زوجتي تقول إنها تقشعِرّ من نظرة عينيه الباردة.

فأعْربَ الرئيس عن قلقه قائلاً:

_ المُهِمّ أنّ أهل البلدة يُطالبوننا بدفْنه، ولا يَسعُنا تجاهلُ رغبة الناس..

فرفع عضوٌ يدَه قائلاً في اندفاع:

_ أرى أن نتَّخذ قراراً بدفنه حالاً!

فوافقه الأعضاء على رأيه بحماس إلا واحداً اعترض قائلاً. وهو المعروف بحرصه على تطبيق القانون:

_ لا يجوز دفنُه بغير شهادة وفاةٍ من طبيبٍ شرعيّ.

فطمْأنه الرئيسُ قائلاً:

_ طبعاً طبعاً. أمرُ الشهادةِ هيِّن.

واتُّخذ القرار بتوقيف الشابِّ، وإخضاعهِ لمعاينةِ طبيبٍ شرعيٍّ. فإذا شهِد الطبيبُ بوفاته، تولَّتِ البلديةُ أمرَ دفنهِ فوراً.

وباكراً في الصباح، بينما كان الشابُّ يتأهَّبُ لمغادرة شقتهِ، اقتحم رجالُ الشرطة عليه البابَ،

وانقضّوا عليه فطرحوه أرضاً حتى أنه لم يستطع حراكاً.

ودخل رجلٌ يلبس بُرنُساً أبيضَ. فانحنى فوق الشابِّ المُمدَّدِ في الأرض، وراح يُحدِّق في وجهه زامّاً شفتَيه. ثم استقام وهو يهزّ رأسَه في أسى مُتبادِلاً مع الحاضرين نظرةً حزينة. وإذا به يستخرج من جيبِه ورقة بيضاءَ ويكتب فيها شهادة وفاة.

ولم يتأخّر الحانوتيُّ. فقد جاء بلُفافةٍ كبيرةٍ من قماش أبيض، تعكِس عيناه بريقَ الجشع، يتبعه على الأثر رجُلانِ يحمِلانِ نعشاً. وفي الحال مضى يُكَفِّن الشابَّ بحزمٍ لافّاً جثّتَه بإحكامٍ، غيرَ مُبالٍ برفضهِ واعتراضه. ثم حمله الرجالُ فوضعوه في النعش وسَدُّوا عليه غطاءه. وتعاونوا فرفعوا النعش على الأكتاف، وهبطوا به الدرجَ في صمت. في الطريق انضمّ إليهم كثيرٌ من الناس بتلقائيّة. وجذبتِ الأوراقُ التي كانت نُشِرتْ بنعيه في الليلة الماضية أناساً كثيرين من الأحياءِ المجاورة حتى سدَّ المشيِّعون الطريق.

بلغتِ الجنازةُ المقبرةَ. فوُضِعَ النعشُ على الأرض بجانب الضريح الذي حُفِرَ على عجل. وقبضتِ الأيدي على الشابِّ ملفوفاً في كفنه. فأُنزِل في الحفرة. ثم أطبقوا بلاطةً سميكةً على فتحتها وأهالوا عليها الترابَ الكثير. وتبادل الناسُ العزاء: "البقاءُ لكم.. البقاءُ لكم". ولدى انصرافهم قال أحدهم لحارس المقبرة مازحاً:

_ لا تسمحْ لأيٍّ من الأمواتِ باللحاق بنا!

أيار 2003

الغريم

لم تستطعْ نبيهةُ التعوُّدَ على قضائها الليالي الطّوالَ وحدَها في هذه الدار حتى بعد مُضيِّ أكثر من سنةٍ على زواجها من أدهم جمعة الحارس الليليّ لمخازن الحيّ.

كان أدهم يذهب إلى عمله في أول كلِّ ليلةٍ، ثم لا يعود إلاّ مع الصباح بعد أن تنقشع الظلمةُ عن آخر زوايا الدار. وكانت نبيهة تودِّعهُ مع غروب الشمس عند البابِ في تعلُّقٍ ورجاءٍ، من غير أن تجرؤَ على إعادة الكلامِ في شأن ترك عملهِ الليليِّ للبقاء إلى جانبها. كان يُحبُّ الحراسة الليلية. لقد أفهمها ذلك جيداً مرّاتٍ كثيرة. حتى أنه في آخر مرةٍ شَكَتْ إليه وحدتَها في الليل أَسْمَعَ الجيرانَ وهو يصيح بها:

_ افهمي يا مرا. أُحبّ عملي ولا أُحسن غيرَه. فلا توجعي رأسي بشكواكِ كلَّ يوم..

وتضمُّه إلى صدرها لا تكاد ذراعاها الرقيقتانِ تُحيطانِ بجسده الضخم. وتحاول أن تطاول قامتَه لتُقبِّلَه بثغرها الرقيق في ذقنه المغروسةِ شعراً قصيراً كالأشواك. ثم لا تدَعُه حتى يتخلّص منها في ضيقٍ وهو يقول مُتأفِّفاً:

_ أخَّرتِني عن شغلي.

وينصفق البابُ وراءَه لتجد المسكينة نفسها ليلةً أخرى وحيدةً كأنها عانسٌ أو أرملة. كما كانت تقول لجارتها إذْ تشكو إليها وحشة الليل. كانت تزور في أول الليل جارتها القريبة. من غير علم زوجها طبعاً. فتقضي عندها ساعةً وبعضَ ساعةٍ هاربةً من وحدتها. ولكن عليها بعد ذلك أن تعود إلى بيتها الموحش، في حين تقضي جارتُها المحظوظة ليلها إلى جانب زوجها ناعمة البالِ هانئة. وتبيتُ هي كأنها عانس أو أرملة!

ولكنْ ماذا قالت لها تلك المرأة التي التقتْ بها عند الجارة وهي تشرب القهوة في زيارتها الأخيرة لها؟

أخبرتْها كيف أنها استردَّتْ زوجَها من ولعه بلعب الورق كلَّ ليلة.

_ كان يتركني بالليل ليسهر في بيت صاحبه. هناك يلتفّ الأصحاب ويبدأون بلعب الورق، ولا يرجع حضرتُه إلى البيت إلا مع الفجر.

فسألتْها نبيهة باهتمامٍ شديد:

_ وكيف استطعتِ إبقاءَه إلى جانبك؟

فقالت المرأة بفخار ومُباهاة:

_ لم أفتح له الباب عند عودته في ذات ليلة!

وضحكتْ ثم تابعتْ:

_ كلّتْ يدُه من الطرق. وراح يصيح ويسبّ حتى أيقظ الحيّ.

وأضافتْ وهي تبتسم في حياء:

_ بالطبع لم تمضِ الليلة إلا وقد حمَّرَ الرجُلُ جنبيَّ بحزامه الجلديّ! ولقد أقسم أنه سيقتلني إذا لم أفتح له لدى عودته في الليلة التالية.

_ وفتحتِ له؟

_ لا! لم أفتحْ! ثم مضى يُخفِّف من سهراته ويُقصّرها بحُجَّة أنها صارتْ تُضجِره. حتى قطعها تماماً وصار يُمضي الليل معي في بيته.

يا لها من امرأةٍ جريئة! كيف أستطيع أنا إقناع زوجي بتغيير عمله والبقاء في الليل إلى جانبي؟ لن أستطيع احتمال وحشة الليل إلى الأبد. وأدهم على عيوبه الكثيرة أحسن من الوحشة!

هكذا كانت نبيهة تفكِّر كلّ ليلةٍ فلا تهتدي إلى طريقة. حتى كان أدهم في صباح يومٍ يُخبرها . على مائدة الإفطار . عن رجلٍ استفزَّه في الليلة الماضية على بوّابة المخازن. وكيف أنه . أدهم _ تربّص به عند البوابة فلم يتركها . وكان غالباً ما يستريح في الداخل بغرفة الحارس . حتى مرَّ الرجل بالبوابة في طريقِ عودته "ومسحتُ به الأرضَ!".

عند ذاك التمعتْ في ذهنها خاطرة. فقالتْ له في براءةٍ ظاهرة:

_ ألعلَّه الرجلُ الذي سأل عنك أمس؟

توقّف أدهم عن مضغ اللقمة في فمه وسألها وقد زايلتْ أساريرَه هيئةُ الضحك الذي كان آخذاً فيه:

_ أيُّ رجُل؟

فقالت وهي تتشاغل بصبِّ الشاي في قدحه:

_ رجلٌ طرقَ عليّ البابَ أمسِ بالليل ففتحتُ له..

قاطعها صائحاً وقد تناثر الطعامُ من فمهِ:

ـ فتحتِ له! ألم أُشدِّدْ عليكِ ألاّ تفتحي لأحدٍ في غيابي؟

فخافت المرأةُ عواقبَ كذبتها أن تجرَّها إلى حساب عسير، إذْ أنها لم تكن قد نسيتْ بعد صفعاتِه الثقيلة. ولكنّ الرجلَ بدا كأنه ترك . إلى حينٍ . أمرَ فتحِها البابَ لرجلٍ في غيابه فسألها في اهتمام:

ـ ما اسمُه؟

ـ لم يذكُر لي اسمه!

ـ فكيف كان شكلُه؟

فأجابتْ وهي تتفادى النظر في عينيه:

ـ لم أره.. أقصد لم أره من قبل. كان في حوالي الأربعين. طويل. أسمر.. (ثم أضافتْ كأنها تذكّرتْ فجأةً) وله شواربُ سوداء!

فتمتم أدهمُ في استغراب:

ـ لا أعرف أحداً بهذه الأوصاف.. ماذا كان يريد؟

ـ لم يقُل. سأل عنك بالاسم ثم قال إنه سيرجع بالتأكيد!

ظلّ أدهمُ يتفكّر وقتاً طويلاً وقد صدَّتْ نفسُه عن الطعام. اهتمَّ بأمر السائل عنه بالليل أكثر مما توقّعت نبيهة. ولم يستطع النومَ في ذلك النهار. وما انفكَّ يسأل نفسَه:

ـ مَن ذا الذي يطرقُ بابي ليلاً ويقول إنه سيرجع، وبالتأكيد؟

وكم من مرةٍ استدعاها من المطبخ ليسألها عمّا يعِنُّ له في شأن ذاك الطارق: هل كان أطولَ مني أم أقصَر؟ أنحفَ أو أسمن؟ وماذا كان يلبس؟ وكيف لم تسأليه عن اسمه يا غبيَّة؟ ويُسمُّونكِ نبيهة! اغرُبي عن وجهي.

وعند العصر زار أدهمَ جماعةٌ من أصحابه. قعدوا في الفُسحة راء الدار حولَ طاولةٍ تحمِل أقداحَ الشاي. وأخبرهم أدهم بشأن الرجل الذي لم يكفَّ عن التفكير فيه. تبادل الرجالُ الآراءَ والتكهُّناتِ حتى قال لهم أدهمُ في صراحة:

ـ أظنّ أن الرجلَ يُهدِّدني! أن يطرق على امرأتي البابَ في الليل والكلّ يعرف أنني لا أكون في البيت.

فاحتدَّ عامرُ . وكان أخلصَ أصدقائه:

ـ مَن يجرؤ على تهديدك؟

فرمق أدهمُ صديقَه في امتنانٍ لمدحه. ثم خطر له أن يسأل زوجتَه سؤالاً. فناداها. جاءتِ المرأة على عجلٍ فوقفتْ في استحياء. سألها أدهمُ عابساً:

_ هل كان يحمل شيئاً بيده؟

فتفكّرتْ قليلاً ثم أجابتْ بصوتٍ خافتٍ:

_ نعم. ولكني لم أتبيَّنْ ما هو!

حرَّك رأسَه أدهمُ في استياء وصرفها صائحاً:

_ إلى الداخل.

فعادتْ إلى الداخل، إلى مجلسها بقرب النافذة تتسمّع حديثَ الرجال حتى جاءها صوتُ زوجِها يقول:

_ لن أذهبَ الليلة إلى عملي. سأبقى في البيت حتى أعرف ماذا يريد ابنُ الكلب.

كادتْ تفضح نفسَها بشهقة فرح. غيرَ أنها كتمتْ فرحتَها بجهدٍ لتسمع صديقه عامر يقول في تصميم:

_ سأبقى معك.

فردّ عليه أدهم باستهانة:

_ لا داعي لذلك. فأنت تعرف أدهم.

فأجابه رجلٌ آخر:

_ سيُسلِّيك في سهركَ بانتظار غريمك.

وبقي أدهمُ بالبيتِ في تلك الليلة ينتظر الرجلَ المجهولَ، ولكنْ في الفسحةِ وراءَ الدار انتظره، يُسامره صديقهُ عامرُ مُتسلِّحَينِ؛ أدهمُ بمسدَّسٍ كان يملِكه، وعامرُ بخنجرٍ حربيٍّ عريضِ النصل.

أما نبيهةُ فكانتْ تقدِّمُ لحارسَيها القهوة والشايَ ثم تأوي إلى الداخل راضيةً بالنجاح المبدئيّ الذي أحرزتْه. وقد أوصاها زوجُها بإبلاغه فوراً لدى سماعها أيةَ حركةٍ عند الباب الأماميِّ. كانت تأملُ . إذا ما تغيَّبَ أدهمُ عن حراسته ليلةً بعد أخرى . أن تستغني إدارةُ المخازنِ عن خدماته الليلية، أو أن يتوجَّس هو شرّاً في تركِ بيته ليلاً، فيبحثَ له عن عملٍ نهاريٍّ. أما صديقهُ عامر ـ فمهما همسَ لها عن حبِّه للشاي من يدها ـ فَسَيَملّ في النهاية الانتظار وينقطع عن مجالسة زوجها. وهكذا تستأثر به إلى جانبها الليلَ كلَّه.

ووجدتْ نفسَها تبتسم في امتنانٍ إلى الرجل الطويل الأسمر ذي الشوارب السوداء الذي تخيّلتْه . خلال انتظارها المُفترض له . واقفاً وراءَ البابِ يشدّ باستفزازهِ زوجَها إلى البيت.

انتظر الرجلانِ في الفسحة خلف الدار ليلةً وليلةً وليلة ولم يطرق الباب الأماميَّ طارق.

وتساءل أدهم في استغرابٍ وغيظ:

ـ أين الرجل؟ لماذا لم يرجع كما أكَّد لنبيهة؟

وبدأ عامرُ يتململ حتى قال لأدهم:

ـ ماذا قال لك مديرُ المخازنِ في شأنِ تغيُّبك؟

فقال أدهمُ في شيءٍ من القلق:

ـ قال لي: "لا بأس إذا غبتَ بعضَ الليالي". وقد غبتُ أكثر من أسبوعٍ حتى الليلة، ولا أثر لابن الكلب.

فسأله عامرُ وهو يغمز بعينه:

ـ وجارةُ المخازن.. ماذا قالتْ لك. وكيف تقدر على البعد عنها؟

فارتبك أدهم إذ رأى زوجتَه مُقبلةً بالشاي، وخاف أن تكون سمعتْ آخرَ كلام الرجل. فاندفع يقول وهو يُشير إليها:

ـ ها أنا باقٍ معها!

ثم لحظ صديقَه بنظرة توبيخ.

أدركتْ نبيهةُ أنّ زوجها يفكّر في الرجوع إلى عمله الليليّ. اغتاظتْ لذلك كثيراً. ولمّا سمعتْه ذاتَ ليلةٍ يقول لعامر:

ـ سأعود ليلةَ غدٍ إلى المخازن.

وسمعتْ عامر يُجيبه موافقاً على قراره:

ـ ألم أقُل لك من البداية "مَن يجرؤ على تهديدك؟"

لمّا سمعتْ منهما ذلك قامتْ من مجلسها عند النافذة وهي تغلي من الغيظ. أرادتْ أن تفعل شيئاً. أن تُكسِّر. أن تصرخ. أن تثأر لأنوثتها المُهدَرة. وما تدري إلاّ وهي تثب إلى الباب الأماميّ فتفتحه بشدةٍ كأنها تتوقّع أن ترى واقفاً وراءَه الرجلَ الذي جاءها أول مرةٍ ووعدَها بالرجوع! ولكنها لم تجد أحداً. فصرختْ تنفيساً عن غيظها المتعاظم، صرخةً دوّتْ في ظلام الليل الراكد. وسمعتْ زوجَها وصديقَه يُهروِلانِ نحو مصدر الصرخة فارتعبتْ لا تدري ماذا

تقول لهما. وإذا بها تمدّ يدها إلى طاقة قميصها فتُمزّقه حتى انكشف أكثر صدرها.

ذَهِل أدهمُ إذ رأى زوجته على هذه الحال. فصاح بها وهو يَشْهر مسدَّسه:

_ ماذا بكِ؟ ماذا جرى؟

لم تستطع الكلامَ. فأشارت بذراعها باتجاهٍ ما في الظلام. وانطلق أدهمُ مزمجراً يتبعه عامرُ شاهِراً خنجَره. وهتف أدهمُ بصديقِه وهو يُشير بمسدَّسه:

_ امضِ أنتَ في هذا الزاروب. وسأدور أنا من الناحية الثانية.

شقّ أدهمُ بين بيوتِ الحيّ النائمة ظلاماً تتخلَّلُه أنوارُ بعضِ النوافذ الساهرة، عيناه تقدحانِ شرراً، وإصبعُه متوتِّرٌ فوقَ الزناد. توقَّف عن الجري لدى سماعِه صوتاً. ثم تقدّم في حذر. وإذا به يلمح التماعةً ترتفع في الظلام عن يساره. وبسرعة توتّرِهِ صوَّبَ مسدّسه وأطلق النار. ندَّتْ آهةٌ ثم تبِعَها سقوطُ جسم. انحنى أدهم فوق غريمهِ في غايةٍ من الحذر والتشوّقِ لمعرفته مَن يكون. وعن قربٍ تبيَّنَ وجهَ صديقهِ عامر!

دأبتْ نبيهةُ على زيارة زوجها في السجن كلَّ يومٍ. وكان يؤلمها أن تحجزها عنه القضبانُ الحديديّة بعد أن كان الليلُ يحجزه. ثم مضتْ تُؤجِّل زيارة اليومِ إلى الغد تأجيلاً لذلك الألم. وعادتْ تقضي لياليها وحيدة مُستوحشة. ولكنْ هذه المرّة بلا أملٍ بأنيسٍ يأتيها مع الصباح.

مهلاً! قد يأتيها في الليل . رغم كلّ شيءٍ . ذلك الرجلُ الطويل الأسمر ذو الشوارب السوداء! فلتتزيّنْ ولْتتبرّجْ إذْ لا يجوز أن تُهمل نفسها وهي في هذا العمر من النضج والأنوثة! حتى إذا جاء وجدَها في أحسن صورة.

وفي ليلةٍ تنبَّهتْ من إغفاءتها القلِقة على صوت. كأنه طرقٌ على الباب. لعلَّه هو! مَسَحتْ النعاسَ عن عينيها ووقفتْ في قميص النوم القصير . الذي واظبتْ على ارتدائه في الليالي الماضية . وقد استولى عليها الخوف. ولكنّه كان خوفاً ذكّرها . لأمرٍ ما . بخوفها من زوجها في ليلة الزفاف. كان خوفاً من ورائه رغبةٌ وتسليم.. تقدّمت من الباب وهي تعض على شفتها. وتلكّأتْ عنده. ثم خافتْ أن ييأس الرجل فيعود من حيث أتى. فمدَّتْ يدَها المرتعشةَ بسرعة إلى قُفل الباب. وفتحتْه.

16 ت 1 2003

محفوظ

_ اِنتبِهْ!

كاد الشابُّ المسكينُ يقع في حفرةٍ بالطريق لولا أن سارعتُ فأمسكتُه.

مُتوكِّئاً على عُكّازٍ اتّخذه بديلاً عن رجله اليُمنى المقطوعة. كان يمشي غيرَ مُنتبِهٍ إلى الحفر الطوليّة التي شُقَّت في الطريق لمدّ أنابيب المياه. بيد أنَّ الشابّ المُعاقَ تخلّص من يدي بلطفٍ وهو يقول باسماً:

_ شكراً لك. وإنْ لم يكن من داعٍ لمساعدتك. فما كنتُ لأقعَ!

ولعلَّه آنَسَ في وجهي شيئاً من الانزعاج لإنكاره إنقاذي له، فدعاني إلى مماشاته وهو يقول:

_ سأشرح لك الأمرَ.

مشينا جنباً إلى جنب بضع خطواتٍ في الطريق المحفور وأنا أتساءل في نفسي عن سرِّ هدوئه وقلة اكتراثه كأنه ما كانتْ ستتكسَّر عظامُه قبل لحظاتٍ في الحفرة العميقة. ثم التفت الشابُّ إليَّ بعينيه الصافيتين وقال بابتسامةٍ تبعث على الاطمئنان:

_ أشكر لك اهتمامك بسلامتي. وتبارك أمثالُك من الناس.

فقلتُ مبتسماً في حياءٍ من امتنانه:

_ العفوَ. لا شكر على واجب.

وإذا به يعود فيقول في توكيد:

_ ولكني ما كنتُ لأقع!

نظرتُ إليه مستغرباً إصرارَه على إنكار ما كان من قرب وقوعِه. فأردفَ قائلاً وهو يَهُزّ رأسَه يمنةً ويسرةً:

_ لن يُصيبني مكروهٌ مهما كان.

ابتسمتُ ساخراً من سذاجة اقتناعهِ وسألتُه وأنا ألحظ رجله المقطوعة:

_ وماذا يحميك؟

فأجابني بثقةٍ عجيبة:

_ إنَّ مصيبتي بفقد رجلي. منذ حوالي الشهر. أمَّنتْني من المصائبِ بعدَها. لذلك فأنا لا

أخشى على نفسي مصيبةً أخرى.

ضحكتُ منه وأنا أنظر أين يضع الأحمق رجله من الطريق المليءِ بالحفر الخطرة. ثم سألتُه في دعابة:

_ والموت؟ لعلك ستقول لي إنك مُؤمَّنٌ منه أيضاً؟

فقال الشابُّ متسامحاً مع سخريتي:

_ الموت حقٌّ على كل إنسان. ولكنْ لن يدركني الموتُ إلا بعد أن أعيش عمري آمناً سالماً، لا أتعرّض لمكروه. وأظنّه لن يأتيني إلاّ من بعد أن أسأم من الحياة. عند ذلك . في آخر عمري . سأموت ميتة طبيعية رحيمة بعد أن أستوفي حقّي من الحياة الآمنة الهادئة.

فتابعتُ كلامه مُصطنعاً الجِدَّ:

_ لأنَّ مصيبتك برجلكَ أمّنتْك بقية عمرك.

فأجاب جادّاً:

_ هذا حقٌّ لي!

كنا قد بلغنا مفترقاً للطرق. فاعتذرتُ عن مماشاته باضطراري إلى اتخاذ طريقٍ آخر. وانصرفتُ عنه متعجِّباً من اقتناعه الغريب. إلا أنني تفهّمتُ حالته. فقد استعظم المسكينُ فقدانه لرجله منذ مدةٍ وجيزة لدرجةِ أنه لا يتصوّر ولا يُصدِّق أنه سيُصاب بعدَها بمصيبةٍ أخرى أيّاً تكنْ.

واهِمٌ مسكين.

وعُرِفَ الشابُّ في الحيِّ. وشاعتْ قصة اقتناعه بأمنِه من الإصابات، وعصمتِه من أيّ شرٍّ ممّا يتعرّض له الناس. وعَلَّقَ على ذلك أهلُ الدعابة في المقاهي وباصات النقل العامة بما حَلا لهم من تعليقاتٍ ساخرة.

وتذاكرنا قضيته في مجلس للأصدقاء. فقال أحدُنا يوجز سيرته:

_ يُدعى محفوظ. في الثلاثين من عمره. فقد أمَّه صغيراً فربي في بيت جدته لأبيه. وكانتْ عجوزاً دائمة التشكّي، شديدة الارتياب والاحتراس. ويبدو أنها زرعت في الغلام الحذرَ من كل شيء. ثم فقد أباه بحادث سيارة.

_ وكيف فقد رجله؟

_ بلغمٍ منْسيٍّ مُتخلِّفٍ عن الحرب الأهلية الماضية. وكان خلال المعارك لا يكاد يغادر الملجأ خوفاً من الإصابة بالقذائف العشوائية.

فعُدتُ أنا أردِّد تفسيري لاقتناعه الساذج والمثير للشفقة. ثم قلتُ:

_ أتمنّى أن يَصدُقَ ظنُّه!

فقال الأصدقاءُ بصوتٍ واحدٍ تقريباً:

_ وأنْ لا نُصابَ نحن ولا أحبّاؤنا بما نكره.

ولكنَّ القلقَ في وجوههم دلَّ على اقتناعهم ببُعد تحقُّق أُمنيتهم.

وسار محفوظ مُتوكئاً على عكازه في طرقات الحيّ بهدوئه المطمئنّ وثقته بالسلامة، يُحيِّي المارّة وأصحابَ الحوانيتِ بلطفٍ ووداعة. وقد أَحَبَّه الناسُ ورَثَوا لمصيبتهِ. وكانوا يبتسمون في عطفٍ لدى تذاكرهم مسألة إيمانه بحصانته، ويقولون:

_ ليت لنا اقتناعَه الساذجَ إذاً لاسترحْنا من الحذر والقلق.

وتلاحقتِ الأيامُ تكاد تُثبِتُ صحةَ زعم محفوظ! فها هو يمضي. غيرَ مكترثٍ لما يُحيط به من أخطار، وما قد يتعرّض له من حوادث. ولا ينالُه أيُّ أذى. وإنْ كان تافهاً هيِّناً.

وقد أَحْنَقَتْ شهرتُه بعضَ السفهاءِ في حيِّنا. واستفزّتْهم لإيقاع الأذى به حتى تنهار هذه الشهرةُ القائمةُ على عصمته من الأذى.

فتآمروا عليه. كما تناقل الناسُ. ونصبوا له فخّاً في الزاروب الذي كان يسلكه صباحَ كلِّ يومٍ في طريقه إلى عملهِ الطوعيِّ بالصليب الأحمر. إذ استدرجوا إلى ذلك الزاروب كلباً شرساً. وحال رؤيتهم محفوظَ يتقدّم بعكازه رَمَوا للكلب بقطعةٍ من اللحم وهربوا. انتظر الشبانُ في آخر الزاروب وهم يتخيّلون بسرورٍ خبيثٍ محفوظ الشابَّ الهادئَ يُفاجَأُ بالكلبِ يُزمجِر ظنّاً منه أنَّه إنما جاءَ ليسلبَه طعامَه. ثم ينقضّ عليه عاوياً عواءَه المُخيف، فغارِزاً أنيابَه برجْله السليمة حتى لا يعود إلى القول باعتقاده السلامة من كلّ شرّ. ولشدَّ ما كانتْ دهشتُهم عظيمةً، ورعبُهم، إذْ رأوا محفوظ يُقبِل نحوهم حيث كانوا يتضاحكون، إلى جانبهِ الكلبُ يُرافقه! وزمجر الكلبُ مُكشّراً عن أنيابه الرهيبة. فارتعدوا من غير أن يجرؤوا على حركة. غيرَ أنّ محفوظ رفع يدَه قائلاً في هدوء:

_ لا تخافوا!

ثم ربَّتَ على ظهر الكلب وهو يقول في عتابٍ مُرٍّ:

_ ألا تخجلون من أنفسكم تسعَون إلى إصابة الناس بما يكرهون، بدلاً من السعي مع إخوانكم إلى تجنيبهم كلَّ ما يُنغِّص عليهم حياتهم؟

ثم هزّ رأسه في أسى وقال:

_ اذهبوا بسلام.

وفي ذاتِ يومٍ كان محفوظ يعبرُ الطريق العام غير منتبهٍ كعادته لما حوله. وإذا بسيارة أجرةٍ مسرعة تتّجِه نحوه باندفاع. لم ينتبِه لها محفوظ، أو لعلّه انتبه ولم يعنِه الأمرُ! ولكنّ السيارة توقّفتْ وقد صَمَّ أزيزُ فراملها آذانَ المارّة. توقّفتْ أمام الشابِّ المستند إلى عكازه، لا يفصلها عن صدمه أكثرُ من شبر. وأخرج السوّاقُ رأسه من نافذة سيارته وهو يلعن محفوظ ويسبّه متّهماً إياه بالجنون والبله. وأخيراً التفتَ محفوظ إلى السائق الغاضب فاعتذر إليه ثم قال له معاتباً:

_ أحرقتَ فراملك من غير داعٍ. فإنَّ السيارة كانتْ ستتحرف عني من تلقاء نفسها لو لم تُوقفْها.

فمضى الرجلُ بسيارته عن الشابِّ وهو يدمدم في غيظ وقد رُدَّ اللونُ إلى وجهه:

_ كان يجب أن أصدمك أيها الأبله حتى أقنعك أنك كبقية الناس معرَّضٌ لكسر رقبتك.

إلى أن كان يومٌ كادت فيه أمّ عليٍّ تدلق على محفوظ طست ماءٍ ساخن، من شرفة مطبخها بالطابق الأول، لولا ان انتبهتْ إليه في اللحظة الأخيرة وهو يمرّ بعكازه ولا مبالاته. فقالت لجارتها في البيت المقابل وهي تُعيد الطست مُصفرَّة الوجهِ من الجزع:

_ كدتُ أسلقُه!

فأجابتْها أمّ حسن بإيمان واطمئنان:

_ لا تخافي. ما كانت المياه لتُصيبَه.

نعم! لقد بدأ بعضُ الناس يُصدِّقون محفوظ فيما ادّعى لنفسه من حصانة.

منهم مَن كان يقول كأمِّ حسن:

_ أما كفاه ما أصابه؟ لن يُصيبَه شيءٌ بعدُ. إنه مُحصَّنٌ!

ثم تُضيف في رجاءٍ:

_ عسى أن يكون ابني حسن كذلك.

ومنهم مَن كان يقول كأستاذ علم الاجتماع والتاريخ بمدرسة الحيّ:

_ دَأَبَ الإنسان خلال تاريخ تمدُّنهِ على الطمع بالسلامة له ولأبنائه. فأبعد الوحوشَ عن مساكنه. واخترع وسائل لمكافحة الأمراض والحرائق، وتجنُّب الكوارث الطبيعية. وشقَّ الطرقَ للسيارات ورصف على جانبيها مماشيَ للمارة. ورفع أسلاك الكهرباء عن الأرض على أعمدةٍ

عاليـة. وفَرَض احترام الأخلاقَ والقوانين لكفِّ شرِّ النـاس عن النـاس، ونشَرَ الوعيَ بإجراءات السلامة العامة، وعمَّم مبادئ الخير والإخاء.. حتى بلغ المجتمع الإنسانيّ درجةً من التطوّر في عصرنا بحيث ينبغي مبدئياً لمحفوظ. ولأيٍّ من النـاس. أن يَنعَم بالسلامة والأمان طيلةَ عمره.

ولكنْ وجد هؤلاءِ مَن يردّ عليهم قولهم، ويُسفِّه رأيَهم:

_ مهما بلغ المجتمع الإنساني من تطور، فلن يخلو من مجرمٍ ينال الأبرياء بأذاه، أو مُهمِل يُصيبهم بقلة احتياطه، أو جاهلٍ يُلحق بهم الضررَ بجهله.

إلا أن اعتقاداً غريباً نَبَتَ في حيِّنا، آمَنَ به كثيرون تفسيراً لحصانة محفوظ:

_ لابدّ أن يكون تطوّر في الطبيعة عقلٌ أو نَبَضَ في مادتها قلبٌ يشعر. بعد كل تلك الدهور من أذيتها للإنسان. بالرحمة له والرأفة به. لذلك امتنعتِ الطبيعةُ عن أذيّة محفوظ وجنَّبتْه بطشها.

وهزِئ البعضُ بهذا الاعتقاد قائلين:

_ إنّ قوى الطبيعة عمياء وقوانينها لا ترحم ولا تميّز. فإنْ قبضتْ يدُ إنسانٍ على سلك كهربائيٍّ عارٍ سرى التيار في جسده فآذاه من غير أدنى اعتبارٍ لكونه إنساناً لطيفاً، محبوباً، لا يؤذي أحداً. وإذا داس إنسانٌ بقدمه على قشرة موز فإنه سينزلق وربما كسر رجلاً أو يداً. فجاذبية الأرض لا ترى منه غيرَ وزنه الخاضع لها، وتعمى عن كونه مسكيناً، لا يستحق كسر رجله!

ويواصل أصحاب هذا الرأي قائلين في إيمانٍ وتسليم:

_ ولكنَّ فوق الطبيعة ربّاً يحمي محفوظ من عبثها. ويحمي مَن يشاء.

فيسألهم بعضُ المتشكّكين:

_ فلماذا يُصاب الناس إذاً أو لماذا هم مُعرَّضون للإصابات طالما أنَّ فوقهم ربّاً يحميهم؟

_ ذلك لأنَّ الربَّ قد يرغب في تجربة الإنسان ليبلو إيمانه. ولعلَّه كفَّ عن تجربة محفوظ. وعسى أن يكون قد حان الوقتُ الذي يكفّ فيه الربّ عن تجربة الجميع.

ومن الناس مَن رفض كلّ هذه الآراء قائلاً إن محفوظ قد اهتدى إلى طريقةٍ خاصةٍ للاحتراس من الأذى الذي قد يُصيبه، بها يتجنّب ما يتعرَّض له كل إنسان.

تداول الناس في حيّنا هذا الآراء والمعتقدات في محاولتهم تفسير حصانة محفوظ، وأصبح لكل رأي أو معتقدٍ أنصارٌ وأتباعٌ يدافعون عنه ويُروِّجون له.

أما بعض المتشائمين فأكّدوا أنّ الأمر كلَّه لا يَعدو أن يكون انخداعاً بطول سلامة الشابِّ، وأنه لن يطول الوقتُ أكثر من ذلك حتى يُصاب محفوظ بضُرٍّ فتنهار أسطورةُ حصانته التي نسجها الناس حولَه. وتبقى بعد ذلك الحقيقة المرّة وهي أن كلّ إنسان . بلا استثناء . معرَّض للحوادث تنهش لحمَه وتكسّر عظامَه وتقُضُّ مضجعه . مهما كان من أمر .

لم يتقبّل الناسُ هذا القول المتشائم نظراً لتطاول عهد محفوظ بالحصانة والأمان. لقد آمنوا بعصمته مهما اختلفتْ تفسيراتُهم لها. وتوافدوا عليه في منزله المتواضع وسط الحيّ يسأله بعضُهم كيف وصلت الطبيعة إلى "قناعةٍ" بتحييده عن مجراها الأعمى. ويسأله قومٌ كيف يُرضي ربَّه فلا يُصيبه بمكروهٍ ولا يُعرِّضه لتجربة. ويسأله آخرون عن طريقته الخاصة في حماية نفسه وتجنيبها الوقوعَ في الأخطار والمكاره.

وكان الشابُّ اللطيف الطيِّب يُجيب كلاً بحسب اعتقاده. فيُغادرُه البعض عارفاً بكيفية انسجامه مع الطبيعة حتى لا يتعرَّض لأذاها. ويودِّعُه آخرون آخذين عنه عبادةً للربِّ وطاعةً له تجعل المرء أثيراً لديه مُحصّناً من مصائبه ومن بلائه معاً. ويشكره رجلٌ على تعليمه إياه طريقته في الاحتراس ممّا يتعرّض له الإنسان في حياته.

وانتشر تلاميذُ محفوظ في الأرض يبشّرون بما وعوه منه، ويعلّمون الناس ما أخذوه عنه ليحفظوا حياتهم من كل سوء.

* * *

كانت حصانة محفوظ حدثاً عظيماً في تاريخ حيّنا، حتى تساءل المهتمون بالشؤون الإنسانية:
هل انقضى عهد المصائب والويلات التي كان تنزل بالناس جُزافاً، وبدأ عهدٌ جديد من الأمان؟
هل جاء الزمن الذي طال انتظاره والذي نأمن فيه على أنفسنا وعلى أولادنا كيفما ذهبوا ومهما فعلوا؟

وما زال محفوظ يمضي في طرقات حيّنا بهدوئه الواثق المطمئن، مُتوكئاً على عكازه المبارك، مثالاً للسلامة والأمان.

30 ت 1 2003

اليدُ القويّة

انتبهتُ من نومي القلِقِ على تساؤلٍ مُباغتٍ: "هل تأكَّدت من إقفالِ البابِ؟". وللحال أزحتُ الغطاءَ عنّي وأنا أُلقي في الظلامِ بنظرةٍ سريعةٍ إلى زوجتي النائمة بجانبي على السرير. وقمتُ مُدرِكاً تمامَ الإدراكِ أنها ليست المرة الأولى التي أتفقَّد فيها قفلَ البابِ في تلك الليلة.

تنوَّر بابُ المدخل على ضوء بطاريةٍ حملتُها في يدي. فبدا لي قفلُه الضخمُ مُحكَمَ الإقفالِ. بيد أني مَدَدْتُ يدي أتلمَّسُ لسانَه الفولاذيّ ناشباً في مسقطه من الجدار. ثم عدت إلى فراشي أكثر اطمئناناً.

لم أكن غافلاً عن مبالغتي في الحيطة كأنّ الحربَ الأهلية لم تنتهِ، وكأنه لم ينقضِ عهدُ المُسلّحينَ الذين كانوا يقتحمون البيوتَ على أصحابها من الطوائف الأخرى، فينتهبونها أو يحتلّونها بعد تهجيرهم منها.

ما كان مضى على زواجي وانتقالي إلى هذه الشقة أكثر من ثلاثة أشهر. فقد كنتُ آنذاك حديثَ العهد بحمل مسؤولية الدفاع عن بيتٍ وحماية زوجة. هذه المسؤولية التي واجهتُها فجأةً . فيما يُشبه الارتطامَ على غفلة . مع أولِ إغلاقٍ للباب عليّ وعلى عروسي ليلةَ زَفَّنا الأهلُ إلى البيت الجديد وغادرونا وحدنا. وقد كان لانْصِفاق البابِ في وجهي . وعروسي مُتعلِّقةٌ بذراعي . صوتٌ رهيب.

ففي بيت أهلي كان لي . كما كان لاخوتي وأمي . خيرُ حامٍ في شخص أبي الذي كنتُ أجد في طوله الفارع برجاً من الحماية والأمان، وفي يده العريضةِ الكفِّ، الغليظةِ المِعصمِ قوةً لا تخذل المحتمين بها. ومع انصفاق الباب أدركتُ فجأةً فيما يُشبه الصدمة أنني هجرتُ ذلك البرجَ الفارعَ، وخرجتُ عن ظلّ تلك اليد القوية، وأنّه لم يَعُدْ لي من حامٍ سوى قُفْل البابِ أُحكِم إقفالَه كلَّ ليلةٍ قبلَ أن ألحق بعروسي إلى الفراش. ثم أعود فأتفقّدُه مرّات في الليلةِ الواحدة، خلال نومي القلِقِ المتقطِّع.

وكنتُ إذا تساءلتُ عن منشأٍ قلقي وبداية التقطّعِ في نومي، برزتْ لي على الفور في ذاكرتي تلك الحادثة التي وقعتْ لأبي في بيتنا وأنا بعدُ في الثانية عشرة من العمر.

ففي صباح يومٍ من أيام وقف إطلاق النار بعد ليلةٍ هادئة نسبيّاً لم تقطع نومنا فيها انفجاراتُ

القذائف العشوائية، أخبر أبي . وكنتُ جالساً لصقَه . زائراً لنا عمّا وقع له في فجر ذلك اليوم.

قال إنّ الباب دُقَّ دقّاتٍ قويةً. فقام وفتحه فإذا ثلاثةُ شبّانٍ.

"عرفتُ واحداً منهم يظهر أنه زعيمُهم. عرفتُه وراءَ لحيته، إنه ابن الكوّاء الذي في آخر الشارع، وهو عرفَني فبادر يسأل في حَرَجٍ وارتباك:

_ نبحث عن شقةٍ للإيجار. فهل تدلُّنا على شقة؟

فسألتُه بقوة:

_ ألستَ ابنَ الكوّاء؟

ازداد حرجاً وارتباكاً وهو يلتفت إلى صاحبَيه ولم يدرِ كيف يتخلّص من الموقف.

فقلتُ له في هدوء:

_ في هذه الساعة تبحثون عن شقةٍ للإيجار! لا يا شباب. لا أعرف مَن يرغب في تأجير شقته لكم.

فقال شكراً وحثّ صاحبيه على الذهاب".

فسأل الزائرُ أبي:

_ وماذا كانوا ينوون؟

فقال أبي في غضب:

_ نهبَ البيتِ أو احتلالَه كما يحدث في هذه الأيام الملعونة.

ودخلتْ أمي بالقهوة وهي تقول للزائر في لهجةِ التشكّي:

_ لم يسمعْ لي وأنا أُحذِّره من فتح الباب، أنْ يكونوا مُسلَّحين!

فضحك أبي في استهانةٍ قائلاً:

_ لم يكونوا ليجرؤوا على شيءٍ ولو كانت معهم أسلحة الدنيا!

فشاركتُ أبي ضحكَه مسروراً، مُؤمناً بكلامه. عند ذاك التفتتْ إليَّ أمي قائلةً في تأنيبٍ باسمٍ:

_ وأنتَ بقيتَ في فراشك وتركتَ أباك يفتح البابَ وحدَه!

فقلتُ خجِلاً متضايقاً:

_ كنتُ نائماً!

وربَّتَ أبي على كتفي. فشعرتُ كأنه يعاتبني في صمتٍ.

منذ تلك الحادثة ابتدأتْ عيناي تقلقانِ لأيِّ صوتٍ يأتيني في الليل من ناحية باب بيتنا.

وأمسى نومي قلِقاً متقطِّعاً.

وفي ذاتِ ليلةٍ فتحتُ عينيَّ قبيلَ الفجر على دقّاتٍ قويةٍ على باب بيتنا. تملَّكني الجزعُ ولم أتحرّكْ من فراشي حتى تناهى إليَّ صوتُ أبي عند الباب يتكلّم بقوة. تطاير جزعي وامتلأتُ جُرأةً فاندفعتُ نحو البابِ حتى وقفتُ بجانب أبي واضعاً كفّي الصغيرة بيده القوية، ورحتُ أرمقُ المسلحين الثلاثة بنظراتٍ حادّةٍ عدائية.

وأخيراً ارتدّ الرجالُ عن بيتنا. فأغلق أبي البابَ وهو يُربِّتُ على كتفي في إعجاب. وقامتْ أمي فأعادتْني إلى فراشي وطرحتْ عليّ الغطاءَ وهي تقول مُشجِّعةً:

_ عافاك يا ماما. صرتَ رجلاً يحمينا.

وأغمضتُ عينيَّ مُغتبطاً راضياً.

ولكنّ الدقات القوية على الباب تواصلتْ بغير انقطاع!

فتحتُ عينيَّ مرة أخرى فوجدتُ بجانبي على السرير امرأتي نائمةً.

تسارعتْ نبضاتُ قلبي. وقَلِقتْ عيناي في الظلام تُساورني الظنون. تتابع الطرق على الباب وأنا قابعٌ تحت الغطاءِ لا أتحرَّكُ حتى حانتْ مني التفاتةٌ إلى زوجتي التي بدأتْ تتململ بجانبي.

خفتُ أن يوقظها الطرقُ فيأخذها الخوف في تلك الساعة المتأخِّرة من الليل. تمالكتُ نفسي وقمتُ لا أدري ماذا أفعل.

ضغطتُ زرَّ الإنارة في المدخل وتقدّمتُ من الباب المُقفَل حتى وقفتُ إزاءَه لحظةً رهيبةً خُيِّلَ إليَّ فيها أنني أسمع صلصلةً مكتومةً للسلاح وراءَ الباب!

مددتُ يدي إلى القُفْل وأنا أُعاني تردُّداً أليماً.

إذّاكَ انتبهْتُ . لأوّل مرةٍ . إلى يدي عريضةَ الكفِّ غليظةَ المعصم. وبدتْ لي قامتي تطاول الباب ارتفاعاً. عقدتُ حاجبيَّ في حزمٍ. وعالجتُ القفلَ بقوةٍ وسرعة، ثم فتحتُ الباب بشدّة وأنا أرمي مَن وراءَه بنظرةٍ غاضبة.

ارتدَّ عن الباب في شبه فزعٍ الطارقُ الذي بدا من ملابسه والبُقْجَةِ التي في يده أنه آتٍ من الريف في سفر. وبادر يسألني مرتبكاً:

_ لا مؤاخذة. أليس هنا بيت الحاج مُتوكّل؟

فأجبته بغضبٍ وعنفٍ كأنني أردّ على المسلحين الثلاثة:

_ لا. ليس هنا.

فتراجع الرجلُ عن الباب معتذراً، يكاد يتعثّر.

وأغلقتُ الباب وأنا ألهثُ في ارتياح. ثم رجعتُ . من غير أن أُقفلَه . إلى الفراش فوجدتُ امرأتي لا تزال نائمةً في أمان واطمئنان. تمدّدتُ إلى جانبها راضياً سعيداً. وما هي إلا دقائق حتى رحتُ في نومٍ هادئٍ عميقٍ لم أنعَمْ به من زمانٍ، ناسياً تفقُّدَ قُفلِ الباب.

25 حزيران 2003

المريض 152

كان يعرف جسده أعمقَ معرفةٍ. كيف لا؟ والجسد جسده هو. وقد رافقه بالمراقبة وولاه بالعناية ما يقارب ثلاثين سنةً من عمره حتى أصبح من دقّةِ التنبُّهِ لشؤون جسده بحيث كان يُدرك حاجاته كافةً ليحافظ عليه سليماً صحيحاً مُعافى.

أما إذا طرأ على جسده اعتلالٌ ما أو توعُّكٌ، فَمَردّ ذلك بالتأكيد إلى انشغاله المؤقت عنه بشؤون الحياة. وما عليه، للتداوي، إلا أنْ يعودَ فيصغي إلى همس جسده يُنبِئُه بما يحتاجُه من راحةٍ أو غذاءٍ أو دواءٍ ليرُدّ إليه صحته وعافيتَه.

وبكلمةٍ، كان حمزةُ الأمينُ يستحِقُّ أنْ يُقال عنه إنّه طبيبُ نفسِه.

ولكنّ الأطباء في مستشفى المدينة لم يعترفوا لحمزة بقدرته على مداواة نفسه بنفسه. وأصرّوا على فرض علاجهم على جسده بعقاقيرهم الغريبة التي لا علم له بها ولا خبرة، غير مُصدّقين أنّ جسد هذا المريض لا يستجيبُ لدواءٍ لا يعرفه هو، ولا يقتنع به علاجاً لحالته.

وكان والدا حمزة قد حملاه إلى هذه المستشفى عصرَ يومٍ من أيام صيف 2003 عندما سقط مغشياً عليه في البيت. وكان قبل ذلك قد مضى على توعّك صحته أيامٌ ثلاثة أو أربعة أبى في خلالها أن يستشير طبيباً قائلاً لوالديه القلقين . كعادته . إنه أدرى بجسده من الغرباء، وإنه يُداوي نفسَه بأصناف من الأغذية، والأدوية المعروفة، وبالكثير من الراحة. وذلك بحسب معرفته الحُرّة لحاجات جسده. فلا داعي للجزع. إلا أن صحته كانت في تدهور مستمر، وكان جسده يهزل بسرعة وهو متصبّرٌ معاندٌ حتى سقط في حجرته.

ولمّا استعاد وعيه في مساء ذلك اليوم قلّب عينيه الزائغتين فيما حوله فوجد نفسه في سرير أبيض الأقمشة، بحجرة عارية، ذات إضاءة بيضاء باردة، وقد ألبسوه برنُساً أبيض، وغرزوا في ذراعه اليمنى أنبوباً دقيقاً موصولاً بكيسٍ من المصل معلّق فوق رأسه.

استاء لذلك كثيراً، وراح يحاول النهوض مُغالباً إعياءه، حتى أقبلتْ عليه مُمرّضةٌ صغيرة بلباسها الأبيض وقالت له باسمةً:

_ أفقتَ؟ سأنادي الطبيب حالاً..

وجاء الطبيب فقدَّم إليه نفسه باسم عبّاس حمّود. وراح يُطمئنه . وعلى وجهه المستدير ابتسامةٌ

مهنيّة . بأنّ حالته لا تدعو إلى القلق، وأنّ.. فقاطعه الشاب بضجر وكان قد جلس في سريره مسنداً ظهره في إعياء:

_ وما أدراك بحالتي؟

فسكت الطبيب كالمنزعج. ثم ابتسم متسامحاً، واستأنف كلامه:

_ وقد وصفتُ لك دواء سينفعك، على أن تخضع للمراقبة.

فقال الشاب بحدّة على قدر ما تسمح به حالته:

_ لا يجدي شيءٌ في مداواتي ما لم أعرفه وأقتنع بحاجة جسدي إليه. فلا تقُل لي "دواء سينفعك" بل عرّفني به؛ أي شيء هو..

ثم بعد توقّف قصير استردّ فيه أنفاسه:

_ وسأرى إن كان سينفعني!

أصغى الطبيب عباس حمود في استغرابٍ إلى كلام مريضه متسائلاً في نفسه عن مؤهلاته العلمية. وتبادل مع الممرضة نظرة استخفاف. ثم رأى أن يجود باسم الدواء وبتعريف مقتضب به. ولكنّ الشاب لم يفهم شيئاً! اسم الدواء أجنبي غريب، وكذلك هي أسماء مكوناته! لذلك طالب الرجل بمزيد من الشرح. بيد أن الطبيب ضاق بمريضه المزعج متذكّراً ما وراءه من مشاغل. فنصحه بإراحة نفسه وترك الأمر له. فعاد الشابُّ يؤكد . وقد نال منه الإعياءُ . أنّ جسده لن يستجيب لأي دواءٍ إلا إذا تعرّف هو به، واقتنع بحاجته إليه. ثم قال إنه أدرى بجسده.

نفد صبرُ الطبيب، ولاح الانزعاج في وجهه المستدير. فسارع إلى إنهاء عيادته لهذا المريض العنيد، موصياً الممرّضة رنا بإعطائه الجرعات المقرّرة في أوقاتها، وبإبلاغه فوراً بأي اضطرابٍ يطرأ على حالته. ثم انصرف. وسكت حمزة عن الجدال إعياءً وخَوَراً. وطرح رأسه المُتعَبَ على الوسادة البيضاء. وتلكّأتْ رنا تنظر إليه في إشفاقٍ قبل أن تسارع فتلحق بالطبيب.

وكان بالحجرة سريرٌ آخر يرقد فيه رجلٌ يكبر حمزةَ بعشرة أعوام على الأقل. في عينيه تصبُّرٌ وتسليم. وفي مظهره وداعة. حيّاهُ حمزةُ بلطف. فالتفت الرجلُ إليه في طيبة. وردّ تحيّته في ابتسام كالامتنان. فسأله حمزةُ عمّا به. فقال الرجل:

_ لا أعرف. أحسُّ بوجعٍ في بطني. أعطاني الدكتور دواءً، وقال لي "ستتحسّن".

_ وما اسمُ هذا الدواء؟

فابتسم الرجلُ في حياءٍ وقال:

_ لم أحفظ اسمه!

فقال حمزةُ في استغراب:

_ كيف تبتلع دواءً لا تعرف حتى اسمه؟

فسكت الرجلُ متحيّراً.

قضى حمزةُ ليلته الأولى في المستشفى مسهَّداً أرِقاً. لم يُعانِ فحسبُ من الضعف والإعياء والإحساس بالغربة في هذه الحجرة الباردة البياض، التي تحمل على بابها الرقم 152. ولكنه كان يعاني إلى ذلك . تساؤلاً محموماً عن سبب فشله في مداواة نفسه بنفسه، كما تعوّد أن يفعل. لماذا لم يتنبَّهْ أول توعّكه إلى ما كان يحتاج إليه جسده من علاج؟ لعلّ جسده يتطلّب هذه المرة علاجاً من نوعٍ جديد، ليس له به علم؛ كالدواء الغريب الذي وصفه له الطبيب حمود؟ قد يكون الأمر كذلك. وراح حمزة يلوم نفسَه على تقصيره في الإطلاع على الأدوية الحديثة والتعرّف بها. هذا التقصير الذي مهّدِ لنقله قسراً إلى دار البرانس البيضاء، وسمح للغرباء بمعاينة جسده تلك المعاينة المهينة، وبتشخيصهم لحالته تشخيصاً مفترضاً لا دخل لرأيه فيه، ومن ثم أباح لهم . تقصيره ذاك . تصنيفه في الحجرة 152، حتى أصبح حمزة الأمين لا أكثر من حالةٍ يكفي لتعريفها ذكر الرقم 152 لاغير. واضطر في آخر الأمر أن يتقبّل في جوفه ما يصفونه له من عقار غريب الاسم والتركيب، لم يَجْرِ له يوماً في خاطر.

كيف سيشفيه هذا العقار الغريب؟ إنّ جسده ينظر بريبة . ولا شكّ . إلى الجرعة منه في يد الممرضة– سواء أكانت حبّة أم حقنة، كمن ينظر إلى غريب يقتحم عليه دارَه. وهل تتلقّى الغريبَ برضى وترحاب إلا إذا تعرّفتَ به قبل ذلك؟ فما قولُك في رجل غريبٍ يعلو رأسك . وأنت مُمَدَّدٌ في سرير يتجافى عنه جنبك . ويأمُرُ لك بعقارٍ غريب يقحمه في جوفك وهو يقول لك "هذا سيشفيك"!

كلا! إنّ جسد حمزة لن يستجيبَ لعقارٍ لا يعرفه. لذلك فإنّ عليه أن يستدرك ما فاته من الإطلاع على الأدوية الحديثة. فإذا أصبحت مألوفةً لديه معروفةً، أمكنه تبيُّنُ حاجةِ جسده إلى أحدها ليسترد عافيته. ومن يدري فلعلّه لا يحتاجها أبداً. ولعلّ علاجه يكون بغير هذه المواد الغريبة. هكذا تسلسلت خواطرُ حمزة في ليلته تلك. ولكنه تساءل في لهفةٍ مُعذّبة: "كيف السبيل

إلى التعرُّف بتلك الأدوية وأنا رهينُ هذا السرير، أعاني وهناً وضعفاً؟"

وفي الصباح سُمِحَ لوالدَيْ حمزة بزيارته. وما إن وقعتْ عليهما عيناه آتيان في غايةٍ من القلق والجزع حتى راح يلومهما . على الرغم من وهنه . على نقله إلى المستشفى. فقالت والدته دامعة العينين:

_ وماذا نفعل وقد أفزعتنا بوقوعك مُغمًى عليك؟

وسأله والده بعبوسة قلقٍ وهو يجلس على كرسيٍّ إلى جانب السرير:

_ هل تشعر بتحسُّنٍ؟

فقال حمزة:

_ أنت تعرف أنني درجتُ على علاج نفسي بنفسي، وأنني لا أتقبل علاج الأغراب.

_ نعم. ولكنّ حالتك هذه المرة صعبة وتستدعي الاستعانة بالأطبّاء.

فعقد حمزة حاجبيه وقال بعناد:

_ لن أدع حالة صعبة تضطرني إلى الاستعانة بغرباء يصفون لي عقاقير غريبة لا أعرفها.

ودخلت رنا الممرضة الصغيرة باسمة النظرة متفائلة الوجه. فزايلت حمزة عبوسته في الحال، واسترد وجهه الشاحب صفاءه، وإن لم تمّحِ منه أمارات الإعياء.

_ كيف حالك اليوم؟

فقال حمزة وقد تحسّنت حالُه:

_ أحسن يا رنا.

وقالت لها والدته في رجاء وتودّد:

_ أوصيك به يا حُلوة.

راحت الممرضة تتفقّد كيس المصل برشاقة يد وهي تقول وقد تألّقت عيناها بالثناء:

_ حمزة في عينيّ!

ثم أخرجت من جيب برنسها الأبيض علبة دواء، ودعت الشابّ المريض إلى تناول حبّة.

أشاح حمزة بوجهه عن يد الفتاة وقد عادوته عبوستهُ، فهتفت به والدته:

_ كُفّ عن عنادك يا حبيبي.

وهز والده رأسه في امتعاض.

أما الفتاة اللطيفة فقد سألته باستغرابٍ عن سبب رفضه. فسألها بدوره بلهجةٍ مُخفَّفة:

_ كيف أبتلع حبّةً لا أعرف ما هي؟

فأجابته ببساطة:

_ سأزوّدك بالبيان الذي يُرفَقُ عادةً بعلبة الدواء. ولك أن تقرأه وتفهم ما تجهل من أمر هذه الحبّات.

فسألها حمزة بلهفةٍ وقد نهض بجذعه عن الوسادة:

_ وهل تستطيعين تزويدي بالكثير من هذه البيانات عن الأدوية المختلفة؟

فقالت له الفتاة الذكية:

_ إذا تناولتَ هذه الحبة من يدي الآن فسأنظر في طلبك!

ابتسم حمزة في ارتياح وإعجاب وتناول الحبة من اليد الناعمة.

وفي وقت لاحق من ذلك الصباح دخل الطبيب عباس حمود الحجرة 152 في جولته على حجرات المرضى الموكول إليه أمرُ العناية بهم، ترافقهُ الممرّضة رنا.

راقبه حمزة يتقدّم من سريره بثقةٍ زادت حتى انقلبت عجرفةً. لقد تعوّد هذا الرجل السيادة على مرضاه. وألِفَ أن يرمُقَه المرضى برجاءٍ وهم مُمَدَّدون في أسِرَّة المعاناة، ينتظرون منه أن يُنْبِئهم بما يجد هو في أجسادهم من علل، ويبتلعون ما يصفه لهم من عقاقير في جهل وتسليم وبلا مراجعة.

_ وصلنا إلى المريض العنيد.. كيف أصبحت اليوم؟

استفزّت حمزة اللهجة التهكّميّة فأخرجته عن استرخائه الواهن. ولكنه قال في هدوءٍ وهو يتبادلُ نظرة مع رنا:

_ في طريقي إلى المعرفة!

لم يُبدِ الطبيبُ اهتماماً بكلام حمزة. فقد كان يلاحظ شحوب مريضه وهُزاله. وعجب لذلك. إنَّ تشخيصه سليم، والدواء الذي وصفه له نافع ولا شك لهذه الحالة. فكيف ذلك؟ ووجد نفسه يُعيد النظر في تشخيصه. ثم ذكر ما كان قد قاله حمزة من أن جسده لا يستجيب لدواء ليس يعرفه أو ليس هو مقتنعاً بنجاعته. فسأله ساخراً:

_ ألم تقتنع بعد بالدواء الذي يُعطى لك؟

فأجابه حمزة مُقَطِّباً:

_ لا! لأنني ما زلت أجهلُه.

_ هل تريدني أن أعلِّمك الطب حتى تقتنع بفائدة علاجي لك؟

_ ما أريده هو أن لا يدخل جسدي شيء أجهله.

فقال الطبيب وكأنه اهتدى إلى حجة دامغة:

_ ما دام هذا الشيء ينفع في شفائك، فلا أرى مبرّراً لرفضك دخوله إلى جسدك وإن كنت تجهله.

فقال حمزة معانداً:

_ لن أنتفع به إلا إذا عرفتُه واقتنعتُ به.

فقال الطبيب معتزّاً بسنوات خبرته الطويلة:

_ الدواء يعمل عملَه في جسد المريض بلا حاجة إلى معرفته به. وقد عالجتُ الكثير من المرضى ولا فكرة لديهم عن الأدوية التي وصفتُها لهم.

فلاح احمرارُ الغضب في وجه حمزة الشاحب وهو يقول:

_ ولكنّ علاجك هذا سلبهم كرامة عقولهم! لقد قبلوا بإلغائك لعقولهم إذ سمحوا بتمرير عقاقيرك إلى جوفهم من غير التعرّف بها، ومحاولة تفهّمها، والإطلاع على ما ستفعله بأجسادهم.

نظر عباس حمود إلى رنا كأنما ليُشهِدَها على حماقة هذا المريض. إلا أنَّ الفتاة لم تُبادله نظرته. فخرج من الحجرة مغتاظاً.

وجاءته رنا بما وعدته به من بيانات وكُتيِّبات عن كثير من العقاقير المستعملة في المستشفى. وضعتها بين يديه وهي تقول في دعابة:

_ ادرُسْ حتى تصير طبيباً!

انكبَّ حمزة . بالرغم من إعيائه المتزايد . على هذه البيانات يدرسها ويحاول اختراق ما توافق الأطباء على دلالته فيما بينهم. وكانت رنا تعوده من آن لآخر فتجده في سريره يقرأ ويفكّر ويُدوِّن الملاحظات إلى وقت متأخِّر من الليل حتى خافتْ على صحته الواهية عواقب الجهد الذي يبذله. فقالت له في إشفاق:

_ أنت تُرهق نفسك يا حمزة.

فرفع إليها عينيه المتعبتين وقال:

_ عليّ أن استردّ ما كان لي من أمر مداواة نفسي بنفسي.

كان يجد صعوبةً في الفهم، ونقصاً في البيانات، وتعميةً. ولكنه كان يتقدّم . على خوره وضعفه

_ بقوة إرادته وحدّة ذكائه وثقته بنفسه.

سأل ابراهيم قاسم موظّفَ الاستعلامات في مستشفى المدينة عن حجرة صديقه حمزة الأمين. فأجابه الموظف . بعد ان أنهى مكالمة تلفونية خاصة كما بدا . بأن المريض في الحجرة 152 بالطابق الأول. فصعد إبراهيم إليه يحمل باقة زهور . على وجهه شيءٌ من أثر الصدمة لدى تلقّيه خبر مرض صديقه.

كان يعرف عن حمزة ما درج عليه من مداواة نفسه بنفسه، ويحفظ عبارته "أنا أدرى بجسدي". فلمّا عرف خبر نقله إلى المستشفى . إثر زيارةٍ عادية لبيته قبل حوالي الساعة . قدَّر خطورة الحال.

سار إبراهيم في ممشى طويل يتابع أرقام الحجرات حتى بلغ الباب الذي يحمل الرقم 152. هاله أن يجد صديقه طريح الفراش، مهزولاً، شاحب الوجه.

فتح حمزة عينيه فابتسم ابراهيم إليه مدارياً جزعَه، وأسرع في وضع باقة الزهور على الطاولة بجانب السرير ليعانق صديقه الذي بدا كأنّ النشاط دبّ فيه فجأة وهو يهتف بصوت واهنٍ:

_ إبراهيم.. كم تسرُّني رؤيتُك.

استخفّ حمزةَ السرورُ لزيارة صديقه القديم ولكنه شعر بما يُشبه الحياء لانطراحه في مستشفى وخضوعه لعلاج الأغراب وهو المعروف "بطبيب نفسه". لذلك بادر إلى إخبار صديقه بظروف نقله إلى هذه المستشفى، وبقراره تبديدَ جهلهِ بالعقاقير الحديثة بدراسة بيانات عنها، حتى قال له بفخار:

_ وها أنا أكتب في ورقة خاصة ما أجده صالحاً لعلاجي من المواد التي أفهمها.

ثم استدرك يقول وهو يتنهّد:

_ بيد أن ذلك يستلزم وقتاً.

تسمّع ابراهيمُ إلى صديقه باهتمام. لقد أَلِفَ منه اعتماده على نفسه في شؤونه كافة. وكان واثقاً بمقدرته الفكرية على معالجة المسائل التي تعرض له في حياته. ولكنه حيال ما يرى من هزاله واصفرار لونه وضعفه لم يملك إلا أن يسأله في شيء من القلق:

_ هل ستتمكن من علاج نفسك هذه المرة؟

ابتسم حمزة في تسامح لطيف وقال لصديقه معاتباً:

_ لا تشكَّ بمقدرتي يا صديقي.

في أثناء كل ذلك كان حمزة يتابع حالة زميله في الحجرة، الرجل الطيب. عرف منه أن الدواء الذي يعطونه له لم ينفع في علاج ألم بطنه. ثم عرف أن الأطباء قدّروا أن به المرارة. وراحوا يعطونه دواءً آخر ولكن بلا فائدة حتى قرروا استئصال مرارته.

ولمّا رآه حمزةُ ساكناً صامتاً مُسلّماً أمرَه لهؤلاء الناس يفعلون ببطنه ما يشاؤون صاح به محتدّاً بالرغم من الدوار الذي بدأ ينتابُه:

_ ألا ترى أن مرارتك لا تستجيب لعقاقيرهم. لذلك قرَّروا استئصالها من جسدك لرميها خارجاً حتى يُحقِّق جسدُك بعد ذلك المعدَّلات التي يُريدونها له قبل السماح لك بمغادرة المستشفى.

لم يفهم الرجلُ المريض كلام حمزة فتنهّد ثم قال في أسى:

_ أريد أن يكفَّ عني هذا الألم.

وتجلّت في عينيه نظرةٌ معذَّبة.

قبيل منتصف ليلة اليوم السابع لادخال حمزة مستشفى المدينة جاء صديقه ابراهيم قاسم على عجل لتفقّده إثر اتصالٍ تلفونيّ طارئ تلقّاه من الممرضة رنا. استقبلته رنا على باب الحجرة 152 بعينين مذعورتين. وأخبرته بأنَّ حالة حمزة قد تدهورت فجأة أول الليل، وأن الطبيب حمود عاده على وجه السرعة. فلما وجده حمود في شبه غيبوبة ترك الحجرة كالهارب وهو يُدمدم:

_ العنيد! إنه لا يستجيب للعلاج.

قلقت عينا إبراهيم. أما رنا فواصلت كلامها المتلاحق المضطرب:

_ لم أدرِ ماذا أفعل. فهرعتُ إلى حمزة أسنده إلى صدري وأحاول إعادته إلى وعيه.

كانتْ ساعةً عصيبةً يا إبراهيم. ولكنه فتح عينيه ونظر إليّ ملياً حتى عرفني. عند ذاك ابتسم في فرحٍ واهنٍ. سألتُه ماذا يريدني أن أفعل. فقال: "إبراهيم.. اتصلي بإبراهيم". وذكر لي بعد جهدٍ رقم تلفونك.

وجد إبراهيم صديقَه ذاهلاً، مرتخيَ الجفنين، يتصبّبُ العرقُ من جبينهِ. ناداه فلم يَرُدّ أو لم يبدُ أنه سَمِع. أخذه الجزع إذ أدرك عقمَ العلاج الذي تفرضه المستشفى على صديقه.

وذكر الورقة التي كان حدَّثه عنها حمزة. وفي حركةٍ ثائرةٍ طرح عنه الغطاء الأبيض، وراح يفتّش جيوبَه فلم يجدها. ثم دسّ يده تحت الوسادة فوقعت على ورقة. أخرجها وقد عاود قلبه الخفقان. فبسطها وقرأ عنوانها "وصفة شعبية" وقرأ تحته لائحة قصيرة بأسماء مواد مختلفة . وقد

لفته أنها معروفة مفهومة واضحة . تليها وصفةٌ مفصّلةٌ بعدد الجرعات ومواقيتها.
طوى إبراهيم الورقة وأودعها جيبَه. ثم حمل صديقه بين يديه . وكان مهزولاً خفيف الوزن .
ومضى به، ورنا تتبعه في اضطراب، إلى خارجِ المستشفى.
آب 2003

البوّابة المُغلَقة

. دق. دق. دق!

أُفٍّ! أَلا أستطيع أنْ أَنعَم بانغلاقٍ لا تُزعِجُه قبضاتُ الطارقين؟

. دق. دق. دق!

خفِّف الطرقَ أيّها الشابُّ. اللعنةُ عليك وعلى أمثالك! يأتيني الواحدُ منكم لا أعرف من أينَ. فيرفع قبضتَه ويهوي بها على صدري طرقاً طرقاً. ثم يقف محدِّقاً بي ولا يكاد يراني كأنه ينظر إلى شيءٍ ورائي مُنتظراً في أملٍ أن أُفتَحَ له إلى هذا المبنى العظيم الذي أَسُدّ مدخلَه بجسدي الحديديِّ العريض. ولكنْ هيهاتَ أنْ أنفتح لك أو لأيٍّ من أمثالك بعد أن أَطبقْتُ من زمانٍ بعيدٍ مصراعَيَّ الثقيلَينِ، وأنشبتُ لسانيَ الفولاذيَّ الطويلَ في مسقطه الضيّق.

. دق. دق. دق!

كُفَّ عن الطرق يا هذا. أَلا يُوحي لك مظهري المتجهِّمُ بانسداد الأفق عندي؟

ألا تبعثُ في نفسك اليأسَ هذه القضبانُ الحديديةُ الغليظةُ التي تتشابكُ فوق سطحي المُصفَّح؟ والصدأ الذي يَعْلوني ألا يُنبِّئُكَ بطولِ انغلاقي دونَ الطارقين؟

ألا تزالُ واقفاً أمامي؟ تَخْفِضُ وجهَك في تَصبُّرٍ، ثم ترفعُه في رجاء. تشبِكُ يَديك أمامكَ، ثم تشبِكُهما وراءَ ظهرِك. تُلقي بثقلك على رِجلٍ واحدة. ثم تُلقيهِ على الأخرى.

أرى في وجهك الأمَلَ يتضاءلُ حتى يتلاشى. ثم إذا بك تَسمعُ حركةً فتحسَبُها أيّها الواهمُ آتيةً من ورائي فيطفح وجهُك فجأةً بأملٍ جديدٍ، وتتألّقُ عيناكَ في ترقُّبٍ مُبتهِج. أكاد أتناسى انزعاجي من طرقاتكَ بمراقبةِ الأملِ يغيض في قَسَماتك مرةً أخرى، والابتهاجِ يَنْطفِئُ في عينيك، إذْ يَمُرّ الوقتُ من غير أن تُؤدِّيَ الحركةُ تلك التي التقطتْها أُذنُك إلى انفتاحٍ للأفق أمامك، أو إلى امتدادٍ لبصرك فيما ورائي.

كان المبنى العظيمُ مفتوحاً للداخلين ليلَ نهارَ، يدخله مَن شاءَ، ساعةَ شاءَ. ثم أَمَرتِ الإدارةُ بإقامتي في هذا المدخل. وعيَّنتْ بوّاباً يقوم على أمري. وأوصتْه بإغلاقِ مَصْراعَيَّ ليلاً، وبألاّ يسمحَ لأحدٍ بالدخول إلاّ في النهار. ثم عادتِ الإدارةُ فأمرتِ البوّابَ بإغلاقي في النهار أيضاً. ولكنّها سلَّمتْه بياناً بالشروط الواجب توفُّرُها في الطارقين الذين يُسمَح لهم بالدخول إلى المبنى.

وتقدّم البوّابُ في العمر، وساءتْ صحتُه، وضاق صدرُه بالطارقين الذين لم يَعُدْ يُسمَح بالدخول إلا لقلةٍ منهم. وهم . تحديداً . أولئك الواردةُ أسماؤهُم في بيانٍ جديدٍ سلَّمتْه له الإدارةُ. كان العجوز يقضي النهارَ مُهَوِّماً على كرسيِّه ورائي. فإذا طرقني الراغبُ في الدخول تنبَّه منزعجاً ثم سأله في حدةٍ بصوته الأجشِّ عن هويّته وهو ينظر بعينيه الكليلتينِ في البيان الذي بيده. ثم ردَّه في جفاءٍ وعاد إلى كرسيِّه مُقطِّباً مُدمدِماً.

أما أنا فقد صَدِئتْ مفاصلي، وعَصِيَ لساني الفولاذيُّ في مسقطه الضيق، حتى بِتُّ إذا أراد البوابُ أن يُدخل أحدَ المسموحِ لهم بالدخول . أَصِرُّ مُحتجَّاً وهو يدفع في مشقةٍ مصراعَيَّ المتثاقلَينِ. فإذا أطبقهما مرةً أخرى أعلنتُ بطقطقةٍ ضاجَّةٍ تملأُ الأحياءَ المجاورة . عن نيتي الانغلاقَ إلى الأبد. وأخذ المرضُ يشتدّ على البواب بتقدّمِه في السنّ حتى راح يغيبُ عني ساعاتٍ كلَّ يومٍ، أتسلّمُ في خلالها أمرَ نفسي فلا أنفتح لأيِّ طارقٍ، مُردِّداً صدى طرقاته بما يُوحي بأنْ لا أمل له فيما يطلب.

. دق. دق!

ألم يقتنعْ هذا الطارقُ بعد بأني لن أنفتح له؟

19 آب 2001

ذلك اليومُ السعيد

ينقبض صدرُه بالحسرة كلما جلس يُراجع أوراقَ يوميّاته القديمة. وتتناوبُ وجهَه المتغضِّنَ من الكِبَر تعابيرُ الامتعاض والمرارة والغيظ مع تقليبهِ هذه الأوراقَ الكئيبةَ، المُصفرَّةَ من القِدَم، التي ثابر على تحبيرها بأحداث حياته يوماً بعد يومٍ، منذ عامه العشرينَ على وجه التقريب. وها هو قد نيَّفَ على الثمانين ولم يبقَ له في وحدة الشيخوخة ما يشغله ويُسلِّي أوقاته سوى مراجعة حياته الماضية في هذه اليوميات، وقد جمعها ورقةً فوقَ ورقة، وحملها معه خلال تقلُّبِه في مراحل حياته كافة، حتى استقرَّتْ هذه الكُداسة الضخمة من الأوراق المحبَّرة في جارور الطاولة بهذه الحجرة الوحيدة التي يقضي فيها العجوز بقية أيام عمره.

التفاهةُ والمعاناةُ هما ما يجده . على الإجمال . في هذه الأوراق التي تنقل له سطورها الباهتةُ . بأمانةٍ مقيتةٍ . ماضي حياته؛ أياماً متماثلةً في تفاهتها أو في معاناتها، تتكرّر في رتابة. وإنِ انعطف مسارُها في بعض مراحل عمره، فإلى رتابةٍ غيرها ينعطف!

ولكم بحث العجوز بين هذه الأوراق الكثيرة عن ورقةٍ ربما يكون أغفل قراءتها وقد سجَّلت شيئاً مما يطيب تذكرُه والاستمتاع باستعادته. وكثيراً ما كان يضغط باصبعيه على ورقةٍ منها بدتْ له سميكةً، لعلَّه يَفصِلُ عنها ما يظنُّه ورقةً أخرى مُلتصقةً بها. ولكنّ الكُداسة البخيلة . كما كان يصفها . تأبى أنْ تجود بتلك الورقة.

ولعلّه لذلك . في ذات ليلةٍ وهو يُقلِّب بكآبةٍ أوراقَ يومياته . خطر له هذا التساؤلُ: "لماذا لا أدُسُّ بين هذه الأوراق ورقةً أملأها بما يَطيب لي- آمالٍ تحقَّقتْ تُذهِبُ الخيبةَ من قلبي والغُصّةَ من حَلْقي، في آخر أيامي، حُبٍّ أستدفءُ بذكراه في شيخوختي الباردة، صداقةٍ أنعَمُ باستعادةِ أجوائها الحميمة في وحدتي، حادثةٍ أو حادثتين فيهما من الفكاهة ما يمسح التقطيبة عن جبيني، ويُفرِّج شفتيَّ الجافتين عن ابتسامة رضى! فإنه يستوي لديَّ . وأنا في هذا العمر أتذكَّر أيامي . ما عشتُه بالفعل وما أُصدِّق أنني عشتُه. وبذلك أَهَبُ نفسي اليومَ الذي حُرِمْتُه".

بدتْ له الفكرةُ لطيفةً جذّابة. إلاّ أنها كانتْ دُعابةً مُرّة. ثم وجد العجوز نفسه يُفكِّر فيها باقتناعٍ متزايدٍ حتى رآها أخيراً الطريقة الوحيدة المتاحة له لتغيير حياته.. الماضية!

استخفّه السرورُ حتى خاف عاقبتَه على قلبهِ الضعيف. لكنه نشط لتنفيذ الفكرة بحماس كأنه رُدَّ

شابّاً يسعى إلى ملْءِ أيامهِ مَرَحاً وسعادة. بين أشيائه القديمة . التي مازال يحتفظ بها في كرتونةٍ باليةٍ بركن الحجرة . مَدَّ يداً قد فقدتْ نضارة الشباب، وراح يُفتِّشْ عن ورقةٍ بيضاءَ من جنس تلك الأوراق التي اعتاد قديماً أن يكتب فيها يومياته. لم يعثر بورقةٍ واحدة. ولكنه واصل البحثَ على الرغم من الألم الذي انتاب ظهرَه في انحنائه فوق الكرتونة. وتصبَّب العرقُ من جبينه حتى وقعتْ يدُه على ورقةٍ من تلك الأوراق القديمة، مُصفرَّةٍ، ولكنها فارغةٌ لم يكتَبْ فيها بعد ما كان ينبغي أن يُكتَب من زمان!

عاد إلى الطاولة وهو يلهث فجلس إليها وبسط الورقة إلى جانب مثيلاتها المُحبَّرة. وتناول القلمَ، وأنشأ يفكِّر فيما سيكتب، على ثغره ابتسامةٌ، وفي عينيه الذابلتين استيقظتِ الأحلامُ. عند ذلك شعر العجوز بوخزة تأنيبٍ لإدراكه فجأةً أنه بكتابة هذه الورقة إنما يأتي تزويراً وتلفيقاً!

باخ سرورُه. وكاد يتراجع عمّا اعتزمه كما يجدر برجلٍ لم يَجِدْ في حياته عن الاستقامة.

"ولكنْ لن يلحقَ أحداً ضررٌ من ذلك!"

ونفض عنه الشعورَ بالتأنيبِ، حتى أنه لإتقان "تزويره" وإسباغ مظهر الأصالة على الورقة الجديدة، خطر له أن يرجع إلى يومياته فيستذكر طريقتَه الأولى في الخط والكتابة: كِبَرُ الخطِّ ووضوحهُ. حشر الكلمات بعضُها ببعضٍ. تكبير الحروف التي في أوائل الكلمات الهامة..

ثم عاد إلى الورقة الفارغة. فاختار لها تاريخاً قديماً قيَّده في أعلاها. بذلك انتسبتِ الورقةُ الجديدة . بجرَّة قلمٍ . إلى مرحلة شبابِه المنصرم!

وقهقه العجوزُ في حُبُور.

بيد أنه لم يغفل عن تفقُّد أوراقِ اليومياتِ أنْ يكون بينها ورقةٌ تحمِلُ التاريخَ نفسَه، فينفضحَ الزَّيْفُ.

ولم يجد يوميّةً بذلك التاريخ. وذكر أنه كثيراً ما كان يُضرِبُ عن تسجيل أحداثِ يومٍ إذا ما خرقَتِ المألوفَ في تفاهتها.

"ها أنا أستنقذ يوماً من العدم!"

قالها بمرارة. ثم أخذه الغيظ فجأةً فتساءل:

"ولماذا كان ذلك اليوم عَدَماً كأنني ما عشتُه؟ ما منعني من ملْئه . هو وكثير غيره من الأيام . بما يستحق كلُّ إنسانٍ أن يحظى به في حياته؟".

وانكبَّ على اليوميات ليجد جواباً عن تساؤله وهو يدمدم: "ما منعني؟ ما منعني؟"

حياءٌ منه وتهيُّب. تردُّدٌ وتسويف.

خمولٌ وقلة هِمَّة. جهل وانخداع فامتناع.

"دفنتُ نفسي حيّاً!".

فقر. انسداد دروب. تفاهة رفاق. تجهُّم حظ. غدرٌ في الصداقة ولوعةٌ في الحُبّ.

"وكنتُ أعيش في مقبرة!"

أزاح جانباً يومياتِه القديمة. فتناول الورقة الفارغة في تصميم. ومسح عليها بيده المعروقة. ثم أمسك بالقلم وقد تحلَّى فجأةً بقدرةٍ لم تكن له في الزمان القديم.

تخلَّص من حيائه ومن تهيُّبه فأتى على الورقة الأفعال التي حَرَمَهُ الحياءُ ثمارها، والتي خيَّبه فيها التهيُّبُ.

وقضى على التردُّد. وقطع التسويفَ. فأقدم حيث كان يتخلّف ويتراجع. واستعجل فيما كان يستبطئ فيه، فأحرز ما فاته.

وألْهَبَ النار في خموله وقلّة همّتِه، فحفلت الورقة الجديدة بالنشاط والحركة وأكثر فيها من قوله فعلتُ وفعلتُ.

وأزاح الجهل ثم قتل الفقر.

وفتح على الورقة الدروب المسدودة فوصل إلى حيث كان يشاء.

وقاطع الرفاقَ التافهين واستبدل بهم رفاقاً يفيضون حيويةً وحبّاً بالمغامرة والانطلاق.

ووزّع ابتسامات الحظ بين الأسطر.

وصادَقَ من وفى في صداقته. ومسح لوعته في الحُب، فَصَفَتْ له حبيبته الأولى وأشرقت ابتسامتُها في آخر الصفحة.

فرح العجوز بالورقة الجديدة التي خلقتْ له يوماً من حبرٍ وورقٍ، يحياه كلّما عاد إليها يقرأها. وضحِكَ مِلْءَ فيه وهو يرفعها فوق رأسه الأشيب مُلوِّحاً بها في ابتهاج.

"بقي أن أَدُسَّها بين أوراق يومياتي القديمة".

وعاوَدَه شعورُه المُقلِقُ بالتزوير والتلفيق. بيد أنه كان أبعد ما يكون عن التفريط باليوم السعيد الذي ظفر به فأضافه إلى عمره. وللعجب وجد نفسه يفكِّر في التستر على ما سيُقدم عليه. كيف يدس الورقة في غفلةٍ من.. من نفسه! تفكّر العجوز في قلقٍ ويدُه قابضةٌ على الورقة العزيزة كما يقبِضُ الحريص على جوهرة يخشى عليها الضياع. حتى برقتْ عيناه الكليلتانِ

مكراً. سُرَّ لاهتدائه إلى طريقة.

ذكر ما كان يقع له في بعض الليالي إذا تأخّر به السهر وهو جالسٌ إلى طاولته يُطالع بعض أوراق يومياته التي اختارها من بين بقية اليوميات في جارور الطاولة . فإنه كثيراً ما كان يغفو فوق أوراقه ساعةً أو بعض ساعة حتى يتنبَّه فجأةً فيرفع رأسه مُثقلاً بالنعاس ويفتح الجارور ويُعيد الأوراق إلى أخواتها ويأوي إلى فراشه بجانب الطاولة. وإذا أصبح وتفقد الأوراق وجدَها متّخِذةً مكانها بين الأوراق في الترتيب الزمني الصحيح. ولطالما أخذه العجب من دقته في إعادة الأوراق وقد كان في شبه نومٍ حتى إنه لا يذكر من الأمر شيئاً.

كثيراً ما وقع له ذلك حتى أنه طمع في الإفادة منه ليدس الورقة بين يومياته في شبه غفلةٍ من نفسه.

كان الوقتُ قد تأخّر بالعجوز حتى ما بعد منتصف الليل. وكان الإعياءُ قد نال منه. ولكنه ما شعر به من قبل في فورة حماسه. فلمّا انحنى في كرسيّه على الطاولة جاعلاً خدَّه على يديه فوق الورقة، أحسَّ بما ناله من إعياء، فأغمض عينيه تاركاً النومَ يُخالسُه حتى..

استيقظ صباحَ اليوم التالي في فراشه.

جلس يتثاءب ويدلك ظهرَه المُتصلِّبَ حتى ذكر ما كان في الليلة الماضية. ابتسم ساخراً. ولكنه وجد نفسَه يشرئبُّ بعنقه لينظر إلى سطح الطاولة متفقِّداً ورقةَ أمسِ. ولمّا لم يجدها ابتسم في رضىً ماكر. ثم قام إلى الطاولة ففتح الجارور بأملٍ خجولٍ واستخرج أوراق يومياته الكثيرة. وراح يبحث فيما بينها عن الورقة الموعودة وهو يزداد لهفةً عليها من غير أن يعترف لنفسه بذلك.

فرَّ الأوراق مرةً ومرةً ولكنه لم يجدْ لورقته من أثر. وتساءل في غيظ:

"أين وضعتُ الورقة في الليل وأنا شبْه نائم؟ لعلّي أضعتُها أو مزّقتُها".

وبحث تحت الطاولة وفي سلة المهملات. ثم دمدم في سخط ومرارة:

"ضاعت! وضاع فيها اليوم الذي جهِدتُ ليلةَ أمسِ في استرداده من الماضي".

وأغلق الجارورَ على أوراق يومياته وهو يزدرد مرةً أخرى حسرته على ضياع أيامه.

*　　　*　　　*

الحقّ أنّ العجوز المسكين قد دسَّ الورقة بين أوراقه القديمة بالترتيب الزمني الصحيح. قام من

نومته القلقة على الطاولة شِبْهَ نائمٍ. ففتح جارورها ودسَّ الورقة في آليةٍ بين اليوميات، وأغلقه ثم مضى إلى فراشه فاستكمل نومَه حتى الصباح.

أما في الجارور المظلم- عدا بصيصاً من نورٍ تسرَّبَ من أعلاه- فلقد اضطربت أوراقُ اليوميات بالغثيانِ إذْ أُقحِمَ بينها فجأةً ورقةٌ غريبة. وصاحت هذه الأوراقُ بالورقة الدخيلة:

_ مَن أنتِ حتى تندسِّي بيننا في وقاحة؟

فأجابتْهنَّ الورقة الجديدة وهي تنطوي على نفسها في خجل:

_ أنا التي كتب فيَّ صاحبُنا ما كان حقَّقه من أمنيات شبابه!

فصرخت الأوراق:

_ تقصدين ما ادّعى تحقيقه من أمنيات.. (ثم في غضبٍ ارتعشتْ له صفحاتُهنّ الصُّفر).. حَرْقاً لكِ أيتها الورقة الزائفة. اخرُجي من بيننا فقد لوّثتِ أصالتنا بحبركِ الكاذب.

غضبت الورقةُ لنفسها وللعجوز صاحبها. فانبسطتْ في جرأةٍ وخاطبتِ الأوراق مُدافعةً عن حقّها في الوجود:

_ بل أنا الأصيلةُ وأنتنَّ الدخيلاتُ!

فخشخشتِ الأوراقُ في استنكار. ولكنّ الورقة الجديدة أضافتْ تشرح كلامَها بحماسٍ بدا في لمعان حبرها الجديد:

_ في الأصل كانت الأماني. هي أَحَقُّ أن تتحقَّق لأصحابها وأن تُسجَّل وتُذكَر. ولكنْ تحقَّقتْ للرجل بدلاً منها التفاهةُ والمعاناةُ. وعلى كُرهٍ منه سجَّلها في صفحاتكنَّ. وليستِ التفاهةُ ولا المعاناةُ ما كان يستحق. وها أنتنَّ تُفاخرنَ بأمانتكنَّ في نقل الوقائع وحِفْظها! والمسكين كلما راجع ماضي أيامهِ فيكنَّ لم يَجِدْ غيرَ الحسرة والمرارة. ليس هو في حاجةٍ إلى أمانتكنّ ولكنّه في حاجةٍ . وهو في أواخر أيامهِ . إلى ما يُؤكِّد له . ولو زَيْفاً . أنه قد عاش يوماً حقَّقَ فيه أمانيه. وأنا . كلما قرأني . أكَّدتُ له هذا!

فهتفتْ بها الأوراقُ في ظفَرٍ:

_ ها أنتِ تعترفين بأنكِ زائفة.

_ أنا ما يتمنّى. وأنتُنَّ ما يكره. لقد كتبني في سعادة، وكتبكنَّ في مرارة. وإذْ يقرأُني تتلألأُ السعادةُ في عينيه. وإذا قرأكنَّ ارتسم الامتعاضُ على شفتَيه، والأسى على وجهه. أمنياتُه أجدرُ بالتحقُّق وملْءِ أيامهِ من كل ما سَجَّلتْه صفحاتُكنَّ من تفاهةٍ ومعاناة. لهذا فأنا أحقُّ بالوجود

منكنَّ!

فأجابتْها الأوراقُ في ثقة:

_ لا مكانَ لكِ بيننا. فتاريخُكِ هذا مفروضٌ فَرْضاً. وأحداثُكِ لا تمهيدَ لها فينا، ولا مستقبلَ. إنَّ منطق التاريخِ يرفُضكِ.

ثم إنّ الأوراقَ الهرِمةَ تكدّستْ على الورقة الجديدة فضغطتها بشدةٍ فيما بينها حتى إنّ الورقتينِ اللتين تليانِها عن جانبيها التصقتا بها فابتلعتاها، ثم راحتا تمتصّانِ حبرَها . الذي لم يكنْ قد جفَّ بعدُ . لتبهيتِ كلماتها وطمْسِها.

كعادته . عاد العجوزُ بعد أيامٍ من الأسى يُقلِّب يوميّاته القديمة. وإذْ عثر بورقةٍ سميكةٍ مضى . كعادته أيضاً . يضغطها بإصبعيه آمِلاً في أنْ يَفصِل عنها ورقةً أغفل قراءتها. ولَشدَّ ما كانت دهشتُه عظيمةً إذ انقسمتِ الورقة إلى أوراقٍ ثلاث.

"لعلَّ شيئاً من الدبس لحق بالأوراق وأنا أنشرها على الطاولة".

خفق قلبُه الضعيف بالترقُّب القلِقِ وهو يستخلص بدقةٍ متناهيةٍ الورقة التي في الوسط. ووجد بها كتابةً باهتة. جَهِد بعينيه الكليلتينِ في تبيُّنِ ما سُجِّل فيها. وقرأها مرةً بعد مرةٍ في اهتمام شديدٍ وهو يذكر أنه كثيراً ما قرأ في أوراقه القديمة عن حادثةٍ وقعتْ له في يومٍ ما من الماضي البعيد وهو لا يذكر عنها شيئاً.

"كيف نسيتُ هذا؟"

وارتسمت على وجهه المُتغضِّن ابتسامةُ الرضى، وقال لنفسه في حنين:

_ ذلك اليومُ السعيد!

حزيران 2003

الدائِنُ

شَمَلَ البيتَ سكونٌ عميق. وبقي هو وحيداً بعد أن انصرف الأصحابُ عند منتصف الليل. وكان قد رجاهم أن يُطيلوا السهرةَ أكثر من ذلك. ولكنْ في النهاية كان لا بدّ أن يتفرّقوا إلى بيوتهم.

وقد ودّعوه عند الباب بقولهم:

_ نوماً هنيئاً.

_ أحلاماً سعيدةً.

_ تصبح على خير.

أيُّ هناءٍ، وأيّةُ أحلامٍ، وأيُّ خير؟

إنهم لا يعرفون ماذا ينتظره في صباح غدٍ.

تحوّل عن الباب في شيءٍ من الحزن. ثم عاد إلى حجرة المعيشة حيث وجد . على الطاولة وسْطَ المقاعد الخالية . ما تخلّف عن السهرة من أطباقٍ وأكوابٍ فارغةٍ، وقشور فاكهةٍ ونقولات، وأعقابِ سجاير.

ابتسم وجهُ العجوز السبعينيِّ وهو يذكر ما كان بين السُّمّار من أحاديثَ حميمةٍ، ونقاشاتٍ حاميةٍ. وتخايلتْ لعينيه الباهتتينِ وجوهُهم المحبوبة. وتردّدتْ في أذنيه أصداءُ ضحكاتهم وصخبهم.

كانتْ سهرةً سعيدة. ولكنْ ما أسرعَ ما انقضتْ! وخفض رأسَه في أسى. ثم تنهَّد وراح يجمع النفايات، وبقايا الطعام. ويُفرغ المنافض. ويكنس ما كان سَقَط من رمادٍ بالأرضِ حول المَجْمَرة.

فعل ذلك في تباطؤ مقصودٍ كأنه كان يُحاول إلهاءَ بالِه عن التفكير في غدِهِ.

إلا أنه حين بدأ يشعر بالبردِ رأى أن يستعجل ليجلس إلى المَجْمَرة مُسْتَدْفِئاً. حمل الأطباقَ والأكوابَ والمنافضَ إلى المطبخ فغسلها وصفَّفَها لتجِفَّ ثم عاد إلى حجرة المعيشة وهو يُقفقِف من البرد. فرتَّبَ الوسائدَ، وسوّى البُسْطَ على عَجَلٍ. وأطفأ المصابيحَ إلاّ شمعةً أبقاها لتُنير له بقيَّة ليلته. ثم طَرَحَ فَرْوَةً وجلس عليها أمامَ المَجْمَرة . وكان لا يزال فيها بضعةُ جمراتٍ تتوهَّج .

باسطاً كفَّيه فوقَها. وتناهى إليه من خارج النوافذ هزيمُ الرعدِ ثم تساقُطُ المطر. فانكمش وتزحزح مقترباً من وهج المَجْمَرَة.

لم يَعُد يستطيع أن يتناسى قلقَه الذي بدا على وجهه المتغضّنِ واضحاً جَليّاً. وألقى نظرةً وجِلةً على ساعة الحائط. إنها الواحدة بعد منتصف الليل. ماذا يقول للرجل إذا جاء في صباحِ غدٍ؟ بأيِّ وجهٍ يلقاه بعدَ مُضِيِّ عامٍ على استِدانتهِ منه سبعين ألفاً، وليس لديه اليومَ قرشٌ واحدٌ يرُدّه إليه من ماله! كم كان كريماً ذاك الرجل. وجده منذ عامٍ ولا مالَ لديه يتعيَّش به، ولا عمل، ولا شيء. فأخذتْه به الرأفةُ ودانَه سَبعين ألفاً يتدبَّر بها أمرَ معاشه مُؤجِّلاً له موعدَ سداد الدينِ عاماً كاملاً إذْ قال. وكان يستعمل العربية القديمة في كلامه:

_ سأَمُرُّ بدارك أُطالبُكَ بمالي عندما يَحُولُ الحَوْلُ بالتمام.

وقد "حالَ الحَول" وأتى على آخر قرشٍ كان معه من مال الرجل. فماذا سيقول له إذا جاء يُطالبه في صباح غدٍ؟

واخجَلَه من أسئلته إذا سألَه كيف أفنى مالَه؟ ولماذا لم يعملْ بما كان أشار به عليه من وسائلَ لتوظيف المال وتثميره وادّخار ريْعهِ حتى يُمكنَه الوفاءُ بالدَّين؟

هل يقول إنه في بداية العام استبعد أن يرجع دائنُه في نهايته ليُطالبَه بالمال. فأنفق بغير حساب. وإنه في نحو نهاية العام كان كأنّه قد التبس عليه الأمرُ. من كثرةِ الأخذِ والردّ خلال هذا العام. فلم يَعُدْ يستطيع أن يَجزِم أن السبعين ألفاً قد وصلتْ ليدهِ دَيْناً عليه من الرجل الكريم حقّاً، أم أنها قد تحدَّرتْ إليه من إرثٍ قديم! غير أنّه واصَلَ الإنفاقَ مُنجرفاً في تيار الحياة. وإنْ تحرَّك في نفسه من آنٍ لآخر شيءٌ من القلق وعدم الارتياح.

أما في هذه الليلة، عشيّةَ استحقاق الدّين، فإنَّ ما كان يستبعِدُه قد اقترب فانقبض قلبُه بالترقُّب والتحسُّب، وإنّ ما كان لا يستطيع الجزمَ فيه يبدو الآنَ كأنّه انجزم. في نفسه الجزِعة المتهافتةِ. وإنّ الدائنَ لا ريبَ آتٍ في صباح غدٍ. فماذا سيقول له؟

على أنّ العجوز. والشهادة للحقّ. لم يُسرِفْ خلال هذا العام، ولم يُبذِّرِ المال، ولم يُبدِّدْهُ في أهواءٍ ونزواتٍ. بل أنفقَه على الضروريّ والعاديّ مِمّا يحتاجُه لحياةٍ معتدلةٍ متواضعة.

نبّهه طنينُ ساعة الحائط. فالتفتَ إليها في جزع. لقد استغرق في خواطره حتى غفل عن مرور ساعةٍ من الوقت. هكذا انقضى هذا العام. هاهي الثانية بعد منتصف الليل.

وحدَّث نفسه: "الصباح يقترب، فما العمل؟" ثم قال في ندم: "فاتَ أوانُ العمل!"

وعادتِ التساؤلاتُ تعذّبُه: ما عسى الرجلُ أنْ يفعل به؟ إنَّ له الحقَّ في اقتضاء الدين. فهل يُسْلِمُهُ إلى الشرطة يَحبِسونَه جزاءً وعقاباً؟ وإلامَ يطول حَبْسُه؟ ارتعد من الخوف، ومن البرد، كأنَّ البللَ في الخارج كان يُصيبُ جسمَه. فعاوَدَ الاقترابَ من المجْمرة. ومَدَّ يدَه بالملقط يُحرِّك الجمرات لينفض عنها ما تراكم من رماد. فتوهَّجتْ. وراح يتأمّل وهجها الأحمر طويلاً حتى أثقل النعاسُ جَفْنيه، وانحنى رأسُه.

تنبَّه فجأةً. فرفع رأسَه في فزع. ومَسَح وجهَه بيده كأنما ليُزيل عنه النعاسَ. لم يَشَأْ أنْ ينامَ لأنه كان يعلم أنَّ النومَ سَينْقله في غمضةِ عينٍ إلى الصباح، إلى المواجهة الرهيبة.

كان نهارُه مُتعِباً. وَجَدَ صعوبةً بالغةً في رفع رأسِه ومُغالبةِ النعاس، على الرغم من قلقه المتزايد ورغبته في تأخير اللحظة الحرِجة.

وكان لا يزال مُطرِقاً يُفكِّر فيما سيقولُه عندما أشرقتِ الشمسُ بغتةً، وسَطع نورُها في عينيه. نَدِيَ جبينُه وهو يترقَّب. وإذا بالباب يُطرَق ثلاثاً ثم ينفتح. لم يستطع رفعَ وجههِ ليرى الطارقَ، ولكنّه شعر في أعماقهِ بأنه دائنه . لا أحدَ غيرَه . وبأنّه واقفٌ ينظر إليه بعينين فيهما من المُساءلة ما عَجِزَ عن مواجهته. فَلبِثَ مُطرِقاً وقد استولى عليه خجل عظيم، خجلٌ أحَسَّ بحرارته في وجنتيه. تواصَلَ الصمتُ المشحون بالمساءلةِ والمُطالبة، والخجلُ يزداد حرارةً في وجه الرجل المُقصِّر حتى شعر أخيراً بوجنتيه تحترقانِ!

فرفع رأسَه يكاد يصرخ من الألم. وفتح عينيه في ذعر. ظلَّ لحظاتٍ مشدُوهاً يلهث حتى أدرك أنّه انكبَّ بوجههِ على المجمرة وهو يُهوِّم فكادتْ بشرتُه تحترق. تحسَّسَ وجنتيه بأصابِعه وهو يزدرد ريقَه في ارتياح. ثم التفت إلى الساعة ليقرأ الوقت. آه! لقد سلبتْه هذه الغفوةُ الغادرة حوالي الساعة ونصف الساعة. وبات الفجرُ قريباً. تململ العجوزُ في مجلسه أمام المجمرة ثقيلَ الرأس، مُتعَباً، لا يكاد يقوى على التفكير في شيء. وسرعان ما عاد جفناه إلى الانطباق، ورأسُه إلى الانحناء. وما يدري إلا وهو يتمدَّد على الفروة غائباً عن كلّ شيءٍ.

طَلَعَ النهارُ. وتقدَّم حتى قارَبَ الظهيرةَ.

الناظرُ إلى باب بيتِ الرجل يراه ما يزال مُقفَلاً. ولو تَيَسَّرَ لهذا الناظر أنْ يَطَّلع على ما وراءِ الباب لرأى صاحبَ البيتِ نائماً على فروته، إلى جانب المجمرة المترمِّدة، لا يُزعج نومَه أحدٌ. ولو أَحَدَّ بصرَه لَلَمَحَ على وجههِ ابتسامةً راضيةً.

21/12/2003

المُنعطَفُ المُضاء

كان الطريقُ يمتدُّ أمامي طويلاً مُقْفِراً مُلتفّاً بالظلام في تلك الساعة المتأخِّرة من الليل، يلوح في نهايته المنعطفُ الذي يُضيئُه عمودُ الإنارةِ الوحيدُ، المنحني نحو الطريقِ بمصباحِهِ الكهربائيّ الكبير، كأنّه مخلوقٌ ليليٌّ يتَفَحَّصُ المارّة بعينٍ مُرتابةٍ مُحمرَّةٍ بالغضب.

تحملني في كل مساءٍ سيارةُ أجرة من أمام باب مصنع الأحذية المطّاطية بالمدينة حيث أعمل، فتُنزلني في أول ذلك الطريقِ رافضةً أن تعبره بي حتى المنعطف إلى الحيّ الذي أسكن فيه. فأضطر إلى عبوره ماشياً. تتسارع دقاتُ قلبي وتتّسع عيناي بالحذر والتوجّس وأنا أتقدّم بخطواتٍ مُتهيِّبةٍ خفيفةِ الوقع.

كنتُ أحاذر أنْ يندَّ عنّي صوتٌ يلفتُ إليّ الأسماع. لذلك اضطررتُ أولَ توظفي بالمدينة إلى التخلي عن حذائي الجلدي ذي النعل القاسي الذي يَرِنّ وقعه على الأسفلت، مُستبدلاً به حذاء مطاطياً من انتاج المصنع. كم كنتُ أكره تلك الأحذية، بنعالها المطاطية الكاتمة لوقع الخُطى. ومن عجبٍ أنها كانتْ تَلقى رواجاً في المدينة. فما من إنسان هناك إلا لديه منها زوجٌ ينتعله في عمل أو نزهة أو رياضة. ولكنني اضطررت إلى انتعالها اضطراراً في عودتي ليلاً أضرِبُ الأسفلت بقدمين أودّ ألا يُسْمَعَ لهما وقعٌ، على هذا الطريق، وعند ذلك المنعطف.

حتى السعالُ كنتُ أكتُمه إذا انتابَ صدري بعد نهارٍ طويلٍ من العمل في المصنع، تمتلئ خلاله رئتاي بالأبخرة المشبّعة بذرّات المطاط.

أواصل تقدّمي الحذر وأنا ألحظ نوافذ البيوت والشقق المطِلَّة على الطريق من قريب ومن بعيد، متسائلاً في إشفاق:

"هاتان نافذتانِ أُضيئتا حال نزولي من السيارة.. وهناك نافذةٌ مُضاءة وقد كانت ليلةَ أمسِ مظلمة!"

حتى إذا بلغتُ المنعطفَ داخلاً دائرة الضوء الفاضحة . تحت عين ذلك المخلوق . شعرت أنني انكشفتُ تماماً للعيون من وراء النوافذِ يُريبُها من أمري ما يُريبُها. فينقلِب الحذرُ خوفاً وتأخذني الرغبةُ في إطلاق ساقيَّ بالركض نحو الحي. بيدَ أنني لا أستطيع التعجُّل في مشيتي أنْ يبدوَ ذلك هرباً بعد جُرمٍ ارتكبته في المدينة. كما لا أستطيع أن أحمل شيئاً بيدي أن يُظَنَّ أنه شيء

ممنوع أهرِّبُه إلى الحيِّ السيّءِ السُّمعة، المبالغ بشهرته في إيواء المهرّبين والخارجين على القانون. وذلك لاكتظاظه بالبيوت المتقاربة التي تتخلّلها الزواريب المتشابكة المستعصية على سيطرة الشرطة. كنتُ أدرك أنَّ العيون لابد أن تنجذبَ من نوافذ البيوت المجاورة إلى هذه البقعة الوحيدة المضاءة من الطريق، وأنه لن تخلو ساعة من الليل من ساهرٍ أو مسهدٍ أو قائمٍ لحاجة، يرمي من نافذة حجرته المعتمة بنظرةٍ ناعسةٍ إلى الطريق فتنجذبُ إلى البقعة المضاءة ويراني. تتنبَّه عيناهُ وتتسمّران على ذلك الشخص الذي يعبُرُ المنعطف في هذا الوقت. وتثور التساؤلاتُ عن هويته ومقصده ومن أين جاء.. وقد تمتدُّ يَدٌ إلى سمّاعة التلفون ويهمس فيها صوتٌ:

_ هناك رجلٌ يعبرُ المنعطفَ قد ارتبتُ فيه!

ولم يكن بعيداً أن تكون سلطاتُ الأمنِ قد بثَّتْ عيوناً لها في المباني المجاورةِ المطلّة على هذا المنعطف لمراقبة حركة التهريب الناشطة . كما يُشاع . من المدينة إلى حيِّنا عبرَ هذا الطريق. والعينُ المعتادة على الارتياب ترتابُ في كلّ إنسانٍ . وإنْ كان بريئاً.

لذلك كنتُ أترقّب في مروري بتلك البقعة المُضاءةِ أن أُعتَرَضَ وأسألَ: "ماذا تفعل هنا؟ وماذا تحمل؟" ولقد أعددتُ الإجابات، وردّدتها في نفسي ليلةً بعد أخرى وأنا أقطع الطريق بطوله حتى ذاك المنعطف. فما أكثر ما يتردَّدُ في حيِّنا من أسماء رجالٍ اتّهموا بالتهريب أو بخرق القانون، ثم اعتُقِلوا أثناء تواجدهم بالمدينة أو خلال عبورهم هذا الطريق.

وقد أصبح لذلك المنعطفِ تأثيرٌ في سلوكي خلال النهار بالمدينة. كنتُ أخافُ أنْ يبدرَ مني ما يُريبُ أو يُثير ظنّاً، لأنني أتوقّعُ التعرّض للمساءلة في مروري بالليل من تحت المصباح الذي يضيء المنعطف، كأنه ساحةُ محكمة قضاتها يُشرِفون عليّ من نوافذ المباني المجاورة، يحدجونني بنظرات الاتهام. فكنت أقدّم كل مساء في تلك المحكمة الليلية دفاعاً عن أعمالي خلال النهار مُثبتاً لهؤلاء القضاة الكامنين أنها لم تخرج عمّا كان يطلَبُ إليَّ من أعمالٍ بريئةٍ بحكم وظيفتي في مصنع الأحذية المطاطيّة.

قلةٌ من الزملاء في المصنع كانوا يعلمون أنني من سكان حيٍّ "المُهرّبين". ذلك لأنني كنتُ أعمل في صمت، وبأقلّ احتكاكٍ بهم. ولا أُستَفَزُّ للردّ عليهم إذا ما تمادوا في تضخيم ما يُشاع فيهم عن حيِّنا من فظاظة في التعامل، وعنفٍ في الشجار. وما ذلك في حقيقة الأمر إلا عفويةً وبساطةً عُرِفَ بهما حيُّنا من قديم. ومع ذلك لا يكاد يخلو نهارٌ من نظرةٍ يرميني بها أحد

الزملاء المنافسين، أو كلمةٍ تُوجَّهُ إليَّ أو تتناهى إلى سمعي من وراء تُثِير في نفسي تساؤلاتٍ مقلقةً ينبغي عليَّ إعدادُ الإجابات عنها ليلاً عند المنعطف المُضاء.

كثيراً ما كان أصدقائي في الحيّ يدعونني إلى ترك العمل المرهق بالمدينة لأعمل معهم بالحي في مهنهم المختلفة. وكم رجتني امرأتي أن أجد لنفسي عملاً قريباً من بيتي لأتجنّب الخطر والخوف وقلق الأعصاب وعلة الصدر التي يُسبِّبها لي العمل بالمدينة في المصنع. ولكم وددت التخلّص من مساءلة المنعطف المضاء. ولكنني كنتُ أطمع في رفع مستوى معيشة عائلتي عن معظم عائلات الحي. فالأجر الذي كنتُ أتقاضاه من المصنع لم يكن يتقاضى نصفه كثيرٌ من الأجراء في حيّنا الفقير. وواظبتُ على عملي بالمصنع مواظبة حاجتي إليه. حتى كان يومٌ جاءني فيه أحد جيراني بالحي راجياً:

_ ألا تجلب لي زوجاً من تلك الأحذية المطاطية التي ينتعلها أهل المدينة لعلّي أجد ما يجدون فيها من خفةٍ للقدم.

فقلت له ساخراً:

_ بل خفة في الرأس! إني لا أحبّ تلك الأحذية الصامتة ولا أنتعلها إلا مضطراً.

ولكنّ الجار ألحف في الطلب حتى انتزع مني وعداً بحذاء مطاطي.

كنّا نصنع الآلاف منها كل يوم. ولم يخطر لي أنّ في الأمر شيئاً عندما تناولت زوجاً منها . كما كان يفعل الزملاء من حين لآخر . فدَسَسْتُه في كيس أسود، وحملته معي لدى خروجي من المصنع في مساء ذلك اليوم. حتى لاح على البعد المنعطف المضاء، منعطف المساءلة الليلية. عند ذاك برز في خاطري وأنا أحمل الكيس الأسود السؤال:

_ ماذا تحمل في هذا الكيس؟

نظرتُ فيما حولي وقد جفَّ حلقي وأجبتُهم بسرعة:

_ حذاءً مطاطياً اشتريتُه من قسم المبيعات التابع للمصنع الذي أعمل فيه . كما تعلمون!

فتبع السؤالَ الأوّل سؤالٌ ثان:

_ وهل لديك فاتورة تُثبتُ شراءك له؟

أدركتُ أنني واقعٌ لا محالة، وأنّ النوافذ قد امتلأتْ بالعيون تتهمني بالسرقة والتهريب، وأنّ عشرات الأيدي قد امتدّت إلى سمّاعات التلفونات للإبلاغ عني، وأنّ الشرطة أو المخبرين وما يدريني من غيرهم يتربّصون بي من حول المنعطف ينتظرون أن أنكشف لهم في ضوئه.

حدّثتني نفسي بالرجوع إلى المصنع وإلقاء الحذاء اللعين الذي أخذته. إلا أن المصنع يكون قد أقفل أبوابه في ذلك الوقت المتأخِّر، وأن رجوعي على أعقابي مُريب.. حافظت على مظهر الماشي ثابت الخطى، الذي لا يقلقه شيء. أما في داخلي فقد كان قلبي يخفق في عنفٍ. وشعرتُ بالعرق بارداً على جبيني.

واصلتُ تقدُّمي من المنعطف المضاء، الكيسُ الأسود في يدي، وحدقتاي مضطربتان إذ تلحظان النوافذ من حولي. وقد أزعجني أيّما إزعاجٍ أنّ الكيسَ كان يُصدر خشخشةً عند كل خطوةٍ كأنه يحاول الإعلان عن محتواه المسروق والمهرَّب!

دخلتُ منطقة الضوء فغاص قلبي في أعماقي خائفاً مذعوراً وقد كفَّ عن الخفقان! في حين أنّ الكيس في يدي ما زال يخشخش مع حركتي منادياً على المجرم، فاضحاً جريمته.

لم أستطع منعَ رجليَّ من التعجُّل ولا رأسي من التلفُّت. وخُيِّلَ إليّ أنّ نوافذ كثيرةً قد أُضيئت فجأة، وأنني سمعت حركة ورائي. فذعرتُ ورميتُ بالكيس من يدي وانطلقتُ هارباً باتجاه الحيِّ معاهداً نفسي إن نجوتُ فلن أعود أبداً إلى هذه المدينة.

10/1/2004

المروحة الغالية

دخل عمر هوانا، قبيل الظهر في يومٍ من أيام الصيف الحارة، دكان خياطٍ بلديٍّ استدلّ عليه في آخر السوق.

كان دكاناً صغيراً تتوسّطه طاولةٌ عالية مستطيلة، عليها أقمشةٌ تنتظر القصَّ والتفصيل. ويلفِتُ السمعَ إلى زاويةِ الدكان مروحةٌ متهدِّمةٌ تدور مُصدِرةً طقطقةً مزعجة.

ترك الخياطُ ما كان بين يديه، وقام لاستقبال زبونه. كان في نحو الأربعين من العمر، نحيلاً، لطيفَ الابتسامةِ، رقيقَ النظرةِ. وضع عمرُ على الطاولة كيساً كان يحمِله وهو يقول:

_ أريد أن تُقصِّر لي هذه البنطلونات مقدارَ إصبعين.

تفحّص الرجلُ الثيابَ ثم قال لعمر:

_ تُكْرَم. إرجعْ بعد حوالي الساعة.

فسأله عمر كم يريد. وكان ما طلبه الخياط أقلَّ بكثير ممّا توقّع. وعندما مَدّ عمر يدَه إلى جيبه لينقده أجرَه مقدَّماً، تراجع الرجلُ وهو يقول في رجاء:

_ انتظر حتى تستلم بنطلوناتك كما تريدها. فإذا رضيتَ عن عملي دفعتَ!

التفَتَ عمرُ إلى المروحة التي لم تكفَّ عن الطقطقة وقال للخياط متعجِّباً:

_ لِمَ لا تشتري لك مروحةً غيرها؟ إنها مزعجة.

فقال الخياط معتذراً وقد تجلَّتْ في عينيه نظرة حزينة:

_ هذه غالية على قلبي.

_ إذاً صَلِّحْها. فكيف تستطيع مع طقطقتها التركيز على عملك؟

فتنهّد الرجل وقال:

_ أخذتُها إلى المُصلِّح فردَّها لي وقال: أحسنُ لك أن ترميها وتشتري غيرها.

كان عمر شغوفاً بتصليح الآلات. ولديه في ذلك خبرةٌ لا بأس بها اكتسبها من محاولاته المتكرِّرة. ولم يكن في حاجةٍ إلى تشجيعٍ حتى يمدّ يده إلى أية آلةٍ تتطلّبُ تصليحاً. فيفكّكها لينظر ما بها، ثم لا يدعها حتى يُصلِّحها. فقال للرجل الطيّب:

_ وإذا صلّحتُها لك..؟

فسأله الرجل بعينين متلَهِّفتينِ:

_ أتقدر على تصليحها؟

فقال عمر وهو يتخذ مجلسَه ويتناول المروحة المتهدِّمة:

_ أحاول!

تفحّص عمر المروحة . بعد أن قطع عنها التيار الكهربائيّ . والرجل يتابعه وقد بدا عليه الامتنان الخجول لهذا الزبون الذي يكلّف نفسَه عناءً هو في غنىً عنه. وسأله عمرُ إنْ كان لديه مِفَكّ براغي. ففتح الخياط درجاً وبحث فيه حتى استخرج مِفكّاً طويلاً وناوله إياه.

وإذْ طالتْ عملية الفكّ والتدقيق، تناول الخياط البنطلونات وجلس قبالةَ زبونه وبدأ بعمله فيها.

وسأل الرجلُ عمرَ على سبيل فتح حديثٍ ودّي:

_ متزوّجٌ أم أعزب؟

_ متزوّج ولي ولد، وأنتَ؟

فتنهّد الرجلُ وهو يرفع وجهَه إلى صورةٍ فوتُغرافية لفتاةٍ صغيرة، مُعلّقةٍ على الجدار، وقال في حرقة:

_ كانتْ لي ابنة، وماتتْ منذ خمس سنواتٍ.

فنظر عمر إلى الصورة ورأى وجهَ فتاةٍ لا يتجاوز عمرُها عشر سنوات، على شفتيها الصغيرتين ابتسامةٌ بدتْ له حزينةً، وقد علا الصورة شيءٌ من غبار الطريق. وسأل الرجلَ:

_ كيف ماتتْ؟

أسند الخياط ظهرَه إلى كرسيِّه وراح يقول في أسى:

_ كانت بنتاً كلّها نشاط وحركة. تعاونني في الدكان، وتهتمّ براحتي. وبالحقيقة هي التي نصحتني بشراء هذه المروحة وقد رأتْ مثلها عند جاري بياع العصير. وأصرّتْ على ذلك بلجاجة الأطفال المُحبَّبة بعدَما رأتْ معاناتي في الحر.

توقَّف عن الكلام وقد اغرورقت عيناه ثم واصل:

_ وكانت تلعب أمام الدكان فوقعتْ فجأة. أسرعتُ إليها أُوقفها على قدميها فلم تستطع الوقوف. حملتُها إلى البيت. وهناك شكتْ لي ضعفاً في رجلها اليسرى وفي يدها. حملتُها إلى الطبيب فطلب لها صورةً بالأشعة ليدها ورجلها ولكنه لم يجدْ بهما شيئاً. وحملتُها إلى طبيب غيره فطلب فحصاً لدماغها وقال إنّ به ورماً خبيثاً.

كفَّتْ يدا عمرَ عن العمل وهتف في فزع:

_ سرطان!

_ درتُ بها من طبيب إلى طبيب. وما باليتُ بما كانوا يأخذون من أجرٍ غالٍ. قالوا إنّ الورم من نوع خطيرٍ ولم يجرؤ جرّاحٌ على مدّ المشرط إلى رأسها. قالوا إنها ستموت حالاً لو فعلوا.

فقال عمر في عتابٍ مُرٍّ وهو ينظر إلى صورة الفتاة:

_ ألم يحاولوا؟ تركوها تموت. مسكينة.

فأعاد الرجل كلامه ولكن في شكٍّ هذه المرة:

_ قالوا إنها ستموت لو حاولوا!

فأجابه عمر في شيء من الحدّة:

_ بل كان عليهم أن يحاولوا جهدهم وألاّ يستسلموا لذاك المرض.

فإذا ماتتْ في محاولتهم فقد كان لها فرصةٌ للنجاة. أما أن يتركوها للورم يقتلها..

وسكتَ عمرُ وقد بدا على وجهه التأثّر والغضب.

فخفض الأبُ المحزون عينيه وقال:

_ نعم تركوها حتى شُلَّتْ تماماً، ثم فقدتِ القدرة على النطق..

كنت أراها تذبل وتموت، ولا أستطيع لها شيئاً..

ثم رفع وجهَه وقال بقوةٍ كأنه يدفع عن نفسه تهمةً وقد التمعتْ عيناه ببريق الدموع:

_ لم أُقصِّرْ في سعيي لعلاجها.

انتبه عمر إلى أنه قسا على الرجل فقال له في توكيد:

_ نعم، أنت لم تُقصّرْ. الأطباءُ قصّروا.

وعاد عمر إلى المروحة وقد فكّكها أجزاءً وأحنى الخياط رأسه على الثياب التي في حِجْره ناشداً السلوى في العمل.

وظلّ الرجلان يعملانِ في صمتٍ حتى سأل عمر صاحبَه إنْ كان لديه مطرقة.

فأجابه الرجل بالنفي. إلاّ أنّ عمر مدّ يده إلى قنينة قازوز فارغة وتناولها وهو يقول ببساطة:

_ لا داعيَ للمطرقة!

وراح يضرب محور المروحة بعقب القنينة الغليظ وهو يلحظ الرجلَ يتابعهُ بقلقٍ ويقول. ولا شكَّ في نفسه: "سيخرب هذا الرجلُ مروحتي."

استقام المحور، وعاد عمر يجمع أجزاءَ المروحة كما فكّها حتى انتصبتْ على قاعدتها المعدنية شامخة العنقِ مدوَّرة الوجه. وما إنْ أوصلها بمأخذ الكهرباء حتى دارتْ؛ لا طقطقة ولا إزعاج. إنما هو هديرٌ هامسٌ لطيف.

وهتف الرجل في مَرحٍ أنساه حزنَه:

ـ إنها تدور أسرع ممّا كانتْ!

دار النسيمُ المُنعش في الدكان الصغير فرقصتْ له الستائرُ وأطرافُ الأقمشة المطروحة على طاولة العمل. وابتسم عمر في زهوٍّ ورضى. ثم حانتْ منه التفاتةٌ إلى صورة الفتاة فبدا له أن دفقات الهواء التي ترسلها المروحة التي أصلحها قد أطارتْ عنها الغبار المتكاثفَ. ورأى كأنّ وجه الفتاةِ قد صفا بالرضى، وأشرقتِ ابتسامتها.

9/9/2003

دُنيا اليقظة

ارتميت على فراشي مُغمض العينين، مُوجعَ الرأسِ، مُتعَبَ الجسدِ.

وتلفّفْتُ بالغطاء الصوفيّ الدافئ. وذلك بعد أن ضبطتُ المنبِّهَ الآلي على الخامسة من صباح اليوم التالي. وكان ضبط المنبّه كلّ مساء آخر ما أبذلُه من جهودٍ في دنيا اليقظة.

تلفّفْتُ بالغطاء الصوفيّ، أنفاسي تتلاحق وفي رأسي نبضٌ قارع. وتساءلتُ غيرَ مصدِّقٍ "كيف اجتزتُ هذا اليوم؟" وطاف بخاطري ما اضطررت إلى حمله في نهاري من أعباءٍ حتى عجبتُ من أين أوتيتُ الهمّةِ للقيام بها. وتطلّعت في خوفٍ إلى ما ينتظرني في غدي من أعباءٍ غيرها، ثقيلةٍ، لا مهربَ من أن أضطرَّ إلى حملها هي الأخرى. وتساءلتُ في شكٍّ إنْ كنتُ سأجد لها هِمّةً! وتمنَّيتُ لو ينقضي نهارُ الغدِ بإغماضة عينٍ فيجيء المساء وأجدني في فراشي مرة أخرى وقد قمتُ بما افتُرض عليّ، وانقضى الأمر!

وأعجبُ شيءٍ هو أنني أُعَدُّ بين معارفي نشيطاً لم أتأخّر يوماً عن عملي. هذا بفضل أو بنقمة المنبِّه الآليّ الذي أضبطه آخر النهار بدقةٍ وحرص قبل أن أنهار على فراشي في رغبةٍ بالفناء والتلاشي. لم أجرؤ مرةً على إهمال ضبطه في آخر النهار، لأنني أعرف عواقبَ ذلك. فدنيا اليقظة لا ترحم مَن يروغ منها. وإنّ لديها على ذلك عقوبات فظيعة رادعة. وما أسرع أن يهزَّني رنينُه بعنفٍ . باكراً في صباح اليوم التالي وأنا أظن أنه لم تمضِ دقيقة على إغماض عينيَّ . لأجد نفسي في مواجهة الحقيقة البغيضة وهي أنني ما زلتُ مُطالباً بالاستيقاظ، وببذل الجهد الأليم للوقوف مرة أخرى على قدميّ وصلب قامتي يوماً آخر على أعمدة الوعي والحياة واليقظة.

تلفّفتُ بالغطاء من قدميَّ حتى رأسي منسحباً به من دنيا اليقظة، عاصباً عينيّ عن أضوائها، صامّاً أذني عن ضوضائها. وتنهّدتُ في تلذّذٍ بالراحة والدفء والأمان.

وشددتُ عليّ الغطاء وأنا أنطوي على نفسي غائصاً في الانسحاب من الدنيا، ومرتاحاً إلى التخلُّص مِمّا تتطلّبُه من يقظة مقيتة..

وإذا بي أرى كأنني من الغطاء الذي يلفّني في رحمٍ حقيقية! رحمٍ تحتويني ضامَّةً إيايَ في حُنُوٍّ. تعمَّقَ إحساسي بالراحة والدفء والأمان. وازددت إمعاناً في الانعزال عن الدنيا حتى خلا

بالي تماماً من معنى اليقظة وكأنني لم أعرفها يوماً.. ولكنْ ما طال بي المُقام حتى راحت جدرانُ الرحم اللدنة تضغط عليَّ في حركةٍ تشنّجية مابين تقلّص وارتخاء! تولاني الذعر ولم أدرِ ماذا يحدث. وما برحتْ تلك التقلُّصات تزدادُ شدَّةً وتكراراً وأنا من الجزع في نهاية حتى ما دريتُ إلا وقد دُفع بي خارج الرحم! رحتُ أتخبّطُ في السرير مُغمِضاً عينيَّ، يداي على أذني، جاهداً في تفادي الضوء الذي سطع فوق جفنيّ يحاول إكراهي على فتحهما للنهار الطالع، والضجة التي راحت تقرع مسامعي مؤنّبة معذّبة.

وإذا بالمظلة الخشبية . التي تمتدّ فوق السرير في شكل فلقة قوقعة . تحنو عليّ فتنطبق على فراشي حاجبةً عني الضوء والضجيج! انكمشت في قوقعتي مُصمِّماً على الانقطاع بها عن الدنيا. وراحت القوقعة تتهادى بي كأنّ أمواجاً لطيفة تحملها حتى استنمتُ إلى هدهدتها، ورجع إليّ اطمئناني وعاودتني السكينة.

ولكن القوقعة ما لبثتْ أن اضطربت بي كأنّ الأمواج اهتاجت من حولها. ارتعدتُ في مكمني خائفاً مذعوراً تتأكلني الهواجس.. حتى تكسّرت القوقعة عني كأنما رمت بها الأمواج إلى صخرة.

وانكشفتُ مرة أخرى لضوء النهار ونداءات اليقظة. وتململتُ في فراشي مُقَطِّباً في تألُّمٍ وعذاب، رافضاً الاستيقاظ، مُعانداً، مُصِرّاً على إطباق جفني وصمِّ أذنيّ.

وإذا بأرض السرير تنخسف بي فأهوي. وجدتُني منطرِحاً في قاع حفرةٍ، في ظلمةٍ وصمتٍ عميقين نفذا إلى أعماقي فَسكَّنا قلقي واضطرابي، وكفّناني بانقطاع عن الدنيا رائع! وأسْلمتُ نفسي إلى العدم والفناءِ، مُغتبطاً بالتفلُّتِ من أعمدةِ الوعي والحياة واليقظة.

كأنها نفخاتٌ في بُوق؟ شقّتْ إليَّ طريقها من خارج الحفرة؛ الدنيا التي ظننتُ أنها نسيتني حيث كنتُ، "ما شأني بها؟ إنها تنادي أولئك الساعين خارج الحفرة.. ولكنْ لماذا يتقلقل كياني مع كلّ نفخة؟ كأنها إيّاي تنادي دون غيري!"

وتتابعت النفخات في البوق بإصرار وبلا هوادة أو رحمة. حرّكتُ رأسي في انزعاج أليم مُحاولاً التملّصَ من النداءِ المُلحّ. وصرخ باطني في احتجاج "لا.. لا.." وفتحتُ عينيَّ في فزع. لبثتُ لحظات كالمذهولِ حتى تبيَّنتُ رنينَ المنبِّهِ الآليّ . على الطاولة بجانب سريري . يوقظني لنهارٍ آخر.

1 نيسان 2003

الدُّخان

ضيِّق الدخانُ عليّ أنفاسي. هؤلاء السوّاقون ما أمقتَ اجتماعَهم في هذه الحجرة.
يُدخّنون السجاير بغير انقطاع نافخين الدخان الكثيف حتى يتعفّر الجو المحصور فلا أجد لأنفي مُتنفَّساً إلا أن تمتلئ رئتاي بالدخان . يُعذّبني منه العلمُ بما يُؤدي إليه من أمراضٍ خطيرة ومُميتة.
وحجرة الانتظار هذه مخصَّصة لهم في مبنى الشركة. مفروشةٌ بكنباتٍ ومقاعد وطاولات ومُزوّدة بآلةٍ كهربائية لتحضير القهوة. وليس لي فيها إلا هذا الكرسي وراء الطاولة أدوِّن في سجلٍّ أمامي مواقيت دخول هؤلاء السوّاقين، فخروجهم في مهمة ثم عودتهم، فخروجهم مرة أخرى. هكذا من الصباح حتى الخامسة من بعد الظهر. وظيفةٌ عانيت البطالة طويلاً قبل أن أحظى بها.
يدخلون الحجرة مع الصباح صاخبين ضاحكين. يجلسون على الكنبات والمقاعد.
هذان يشتبكان في مُشادّة كلاميّة.
وذاك يسُبُّ امرأةً كاد يدهسها بسيارته وهو في طريقه إلى الشركة.
وأولئك يُردِّدون النكات الفاجرة ويضحكون.
ثم تُصَبّ فناجين القهوة. وتشتعل السجاير الكثيرة. ويتصاعد الدخان من الأفواه والأنوف. وتمتلئ المنافض بالرماد والأعقاب.
أما أنا فلا أستطيع فكاكاً من مجلسي وراء طاولة السجل، أُشاركهم التدخين رغماً عن أنفي . ولكنْ بلا سيجارةٍ ولا لذة. ويبدو لي أنهم يجنون من التدخين لذته تاركين لي ضرره والضيق به.
فإذا تقدّم النهارُ استُدعي السواقون واحداً في إثر آخر لنقل مدير أو موظفٍ إلى أحد المشاريع الكثيرة التي تتولّى الشركة مقاولاتها.
ولكنْ لا يكاد يغيب آخرُهم عن الحجرة ساحباً وراءه دخانه حتى يعود من مهمته أوّل الخارجين منهم. فيدخل وهو يأخذ نفساً من سيجارةٍ أشعلها لتوّه ثم ينفخ الدخان نحوي مُلقياً عليَّ تحية اشتياقٍ دخانية. وأنكبّ أنا على السجلّ في كدرٍ أُدوِّن ساعة رجوع ذاك السائق وأنا ألعن تلك

الساعة.

وهكذا لا تكاد الحجرة تخلو دقيقةً من مدخِّنٍ، كأنّ هؤلاءِ السوّاقين قد أخذوا على أنفسهم عهداً أن يحافظوا على السيجارة في الحجرة مشتعلة!

وعند الظهر يلتقي السوّاقون مرةً أخرى في الحجرة يتناولون سندويشات الدجاج والنقانق والحلاوة أو المربّى ويصفو الجوّ من الدخان في أثناء المضغ والتمطق. إلا أنّ ذلك لا يدوم طويلاً. فكأنهم يتعجّلون في الأكل، لا يكادون ينتهون منه حتى يَشْهَروا سجائرهم فيُشعلونها ويُدخِّنون مُتّكئين على الأرائك في ارتياح.

وقد أعربتُ لهم غير مرةٍ عن ضيقي بالدخان وانزعاجي منه. ولكنْ لم يكن لذلك من أثر. فإذا قلتُ صراحةً لواحدٍ منهم فاق زملاءه تدخيناً:

_ الدخان يُضيِّق نَفَسي ويخنقني.

أجاب بصَلَف:

_ وأين ندخّن؟

ثم بادل زملاءه نظرةً كأنما يُشهدهم على وقاحتي.

وإذا روّحتُ بيدي الدخان عن وجهي، يزفره سوّاق اختار مجلسَه إلى جانبي، وارتسم الامتعاض واضحاً على قسماتي، لم يلتفتْ إليّ الرجل حتى يُنهي تدخين سيجارته وعندئذٍ ينتفض فجأةً وكأنه يتنبَّه لأول مرةٍ إلى انزعاجي، فيسألني في تجاهلٍ بغيض:

_ هل أضايقك بسيجارتي؟

ثم يمدّ يده بعقب السيجارة فيطفئه في المنفضة خانقاً آخر ما كانت تنفثه من دخان. ثم يرمقني بنظرة كأنما أدى إليّ معروفاً، وأبدى نحوي لباقةً. وبعد قليل يعود إلى تدخين سيجارة أخرى ناسياً ما كان!

لم يكن من الحكمة أن أتمادى في إظهار انزعاجي من الدخان، واحتجاجي عليه، وهم مولعون به على هذا النحو. فإنّ ذلك ربّما أحفظهم فضاقوا هم بي. ولا آمَنُ بعد ذلك على وظيفتي في هذه الشركة. إذ أنهم بحكم اتصالهم المباشر بالمدراء وكبار الموظفين قادرون على أن يُبدوا لهم تذمُّراً منّي أخشى بإجماعهم عليه وتكراره أن أفقد وظيفتي. وأين سأجد وظيفةً أخرى؟ فيكون بذلك تشرّدي وضياعي. وما يُدريني لعلّهم يَسعَون لدى مُعلِّميهم من أصحاب الشركة إلى أن يستبدلوا بي موظفاً مُدخّناً مثلهم يُشاركهم ولعَهم، لا تخلو جيبُه من علبةٍ للسجاير

يَمُدّهم ببعضها في حال فراغ عُلبهم. وقد تمنّى بعضُهم مرةً لو أنني كنتُ مدخناً إذاً لوجد معي قدّاحةً عندما تعطّلت أو فرغت التي كان يحملها.

أما إذا تجرَّأتُ على مدِّ يدي إلى النافذة لأفتح منها دَرفةً تخفِّف عن صدري خناق الدخان، فسرعان ما يهتف بي أحدُهم:

_ أتريد أن تقتلنا من البرد؟

فأُضطرّ إلى إغلاق الدَّرفة الزجاجية غير أنني أتعمّد ألاّ أُحكِمَ إقفالها بحيث أنّ هبَّةً للريح قوية قد تفتحها بعنفٍ لتتصفق بالجدار فتتحطم! وأرجع إلى مجلسي وأنا أتخيَّل كيف أن الرياح ستندفع إلى الداخل وتدور في جوّ الحجرة الضبابيّ لتطردَ منه كلَّ ذرات الدخان، وتقتل هؤلاءِ المدخنين من البرد!

إنها جرعة يوميّة من السمّ تمتلئ بها رئتاي، ويجري بها دمي، وتتكمش لها نفسي في انزعاج وخشيةٍ من المرض. وأتساءل: حتى متى؟

ها هو واحدٌ منهم. وهو رجلٌ على أعتاب الشيخوخة. يلتفتُ إليَّ مُلوِّحاً بعلبةٍ للسجاير فارغة ويقول في رجاءٍ ليس من طباعه:

_ بحياتك هل تجلب لي علبة من الدكان؟

كم أوَدّ أن أردَّ عليه بما يستحقّ. هؤلاء السوّاقون لا حدَّ لوقاحتهم. ولكنني أخشى أن يضطغنها عليَّ إنْ أبيتُ.

وأنهضُ من وراء طاولتي. أحاول أن أبتسم إلى الرجل فلا أستطيع. وأخرج من الحجرة جامدَ الوجه متجهِّماً.

لم يعطني ثمن العلبة. هل سأؤدِّي عنهم. فوق كل ذلك. ثمن جرعة السمّ التي يُعطونها لي!

أنزل إلى الطريق مُتنسِّماً الهواء الباردَ النقيّ. أتنفّس طارداً الدخان من أنفي ورئتي. ثم أنطلقُ منتعشاً متحرراً. فأرفع يديَّ في سرورٍ مالئاً صدري بالهواء الطَلْق.

أبلغ دكان السجاير وأدخله فأجد البائع جالساً وراء عدّاده يستمع إلى راديو بين يديه يُذيع الأخبار. فأُسمّي له الاسم الأجنبي البغيض لتلك السجاير، وأنا أُنقّل بصري في حقدٍ بين الرفوف الغاصّة بصناديق الدخان. ينهض الرجل ليأتيني بطلب ذلك السوّاق العجوز.

وفي أثناء ذلك يُعلن الراديو عن قرب إذاعة النشرة الجوية، فأُصغي إليه مُترقِّباً:

أفادتْ مصلحة الأرصاد الجويّة عن اقتراب عاصفة عنيفة خلال الأيام القليلة المقبلة..

أبتسم في مكر. غير أنّ البائع يُعلّق على الخبر وهو يُناولني علبة السجاير:

_ ستخيب توقّعاتُهم ككل مرَّة.

فأنقده ثمنَ العلبةِ وأنا أجيبُه في توكيد:

_ بل ستأتي الرياحُ العاصفة قريباً!

وأُدير له ظهري خارجاً من الدكان.

وأرجع إلى بيتي في آخر يومٍ طويلٍ خانقٍ أُعاني شعوراً بجفافِ الحَلْقِ والجوفِ كأنَّ جسدي لحمٌ مُجفَّفٌ مُدخَّن. ويسوء خُلُقي مع زوجتي فلا أحتمل لها أيَّ خروجٍ عن إرادتي مهما كان طفيفاً. وأشتدّ في محاسبتها صائحاً مُعنِّفاً ولستُ أجهلُ سببَ ذلك. إنه ثِقَلُ الخضوعِ لإرادةِ أولئك المدخِّنين طوالَ اليومِ، حتى إذا عدتُ إلى بيتي تحرّرتْ إرادتي فتعملقتْ ساحقةً الإرادة الهشَّة لهذه المرأة المسكينة. ويَفسَد جوُّ البيت بالشجار كما فسد جوّ العمل بالدخان. وأخلد إلى النوم مُعتكِرَ المزاجِ، ضيِّقَ الصدرِ مُتعَباً. ولكنْ ما أسرع ما يطلع النهارُ، وأجدني مرةً أخرى في حجرةِ الدخان! ها هم السوّاقون يدخّنون. الدخان ينعقد في فضاء الحجرة المخنوق. وينتشر كثيفاً بين جدرانها المتقاربة حتى يسُدّ عليَّ أنفاسي. أُحرِّك رأسي في ضيقٍ شديدٍ يَسبِق . ولا شكَّ . الاختناق.

ألتفِتُ إلى النافذة في رجاء. وإذا بعينيّ تقعان على الرجال المُدخِّنينَ صرعى في الأرض. قتلهم التدخين.. أو البرد.. هاهم مُمَدَّدونَ شاحبي الوجوهِ، جافةً أجسادُهم كقطع اللحم المُدخَّن. ولكنَّ سجائرهم بين أصابع أيديهم ما زالت تُدخِّن! ومن أفواههم المنفرجةِ ما زال الدخان يتصاعد كثيفاً، ومن أنوفهم أيضاً.

إني لأعاني اختناقاً لم أخبره من قبل. ويُخيّل إليّ أنني سأموت إذا لم أكُمَّ تلك الأفواه المُدخِّنة. ولكنْ ما إنْ هَمَمْتُ بالتحرُّكِ حتى أدركتُ أنني لا أستطيع الحركة. وإذا بتلك الأفواه تتمدَّد بابتساماتٍ هازئةٍ مخيفة..

وفتحتُ عينيَّ بانزعاج شديد.

فوجدتُ نفسي في فراشي وقد طلع الصباح. ولكنْ من أين هذا الدخان الذي يلفّني؟ في بيتي، وفي حجرة نومي! وصرخت بأعلى صوتي:

_ يا امرأة! مَن الذي يُدخِّن في بيتي؟

وسرعان ما أقبلتْ عليّ زوجتي مضطربةً وهي تهمِس في ارتياع:

_ صَهْ! إنها صاحبةُ العمارة جاءتْني باكراً لتشرب فنجانَ قهوة. ولم أجرؤ على الطلب إليها الامتناع عن التدخين. أخاف أن يأخذها الغضب فترفض تجديد عقد الإيجار. وأزمة المساكن كما تعلم.

باخ غضبي. واضطربتْ عيناي في إشفاق. ووثبتُ من فراشي وأنا أُسوِّي شعري المُتشعِّث. وقصدتُ إلى حجرة الاستقبال وأنا أدعو الله أن تَتَقَبَّلَ المرأةُ اعتذاري.

13 نيسان 2004

الصورة

في مناسبةٍ سعيدة يلتقط له أصدقاؤهُ صوراً فوتُغْرافيةً كثيرة. يُظهِّر له الصورَ صديقُه المُصوِّرُ الصحفيّ، ثم يَبعث بها إليه. فيجلس الشابُّ في تلك الليلة إلى صوره يُطالعها وحيداً في حجرة نومه. وراح يُعجَبُ بصورة وجههِ ضاحكاً أو لاهياً أو شارداً، ويتذكَّر الأجواء السعيدة لكل صورة. وإذا بصديقهِ المصوِّر يُتلفن له في ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليلة ليسألَه في جزعٍ إذا ما كان قد لاحظ في الصور شيئاً غريباً. يتناول الشابُّ الصورَ في تراخٍ عن الطاولةِ بجانب سريره وهو يسأل صديقَه بالتلفون ماذا يقصد. إنه لا يُلاحظ شيئاً غيرَ عاديٍّ . عدا ما يضطرب في عينيه من قلقٍ لا مُبرِّر له، اعتاد من قديمٍ أن يُلاحظه في أغلب صورهِ. وغيرَ ذلك لم يلاحظ شيئاً. فقال له صديقُه . وكان صوتُه يبدو كأنه آتٍ من بعيد مع أنه في الحيّ نفسه:

_ ألا تتبيَّن إلى جانبك في الصور شبحاً لشخصٍ يُلازمك في الصور جميعاً؟

أَحَدَّ بصره في استهانة وهو يَعجَبُ لغرابة ما يسمع. وأجاب صديقَه بأنه لا يرى شيئاً مما يقول. ولكنْ قبل أن يلفتَ صديقُه ملاحظتَه إلى يسار صورته بدأ يتبيَّن ملامحَ شخصٍ تكاد تذوب في ضبابٍ بخلفية الصورة.

استولى عليه رعبٌ حقيقي واتسعتْ عيناه وانحبستْ أنفاسُه.

وفي عصبيةٍ راجعَ الصورَ واحدةً واحدة؛ الشخص يُلازمه فيها جميعاً كما قال صديقُه.

بصعوبةٍ ابتلع ريقه، ثم سألَ صديقَه في التلفون بصوتٍ خافتٍ:

_ ما هذا؟

_ لا أعرف. لعلّه عطلٌ بآلة التصوير.

فقال للمُصوِّر بحدة:

_ لم يكن بالآلة عطل. لعلك تلعب معي لعبة سخيفة!

_ أنت تعرف أن ذلك ليس من عادتي.

قال لصديقه في لهوجة إنه سيرجع إليه لاحقاً. ونهض من فوره إلى الخزانة فاستخرج ألبومه العتيق، ومضى يُراجع صوره القديمة. ها هو الشخصُ عينُه فيها جميعاً! ربَّاه مَن هذا؟ إنَّ ملامحَه شائهةٌ مُخيفة، لكنَّها تبدو مألوفة. فأين رآه من قبل.

إنّ رغبته في معرفة الشخص مَن يكون لم تكن شيئاً إذا ما قيستْ بالرعب الذي استولى عليه. وبحركةٍ لا إراديّة التفتَ فجأة إلى يساره. ولكنه لم يجد أحداً!

استردّ أنفاسَه وهو يُوصي نفسَه بالتزام الهدوء ورباطة الجأش. وعاد إلى الصور يتفحّصها بالترتيب الزمني لالتقاطها، حتى لاحظ ما زعزع كيانَه. لاحظ أن الشخص يقترب منه أكثر فأكثر صورةً بعد صورة مع تقدُّم زمن التصوير. حتى إن الصورة الأخيرة لا يكاد يفصله فيها عن الشخص إلا قيد أنملة!

لم يغمض له تلك الليلة جفن. ولبث حتى ساعات الفجر الأولى مفتّح العينين يتلفّت حواليه وقد أبقى اللمبةَ مضاءةً طوال الليل.

في الصباح اغتسل ثم ارتدى ملابسه، وهو يحاول أن ينفض عنه أفكار الليلة الماضية. ومشط شعره ولكنه تجنّب النظر في المرآة!

مضى في طريقه إلى عمله مستروحاً نسمةً مُنعشةً بعد ليلةٍ مضنيةٍ. إلا أن ملامح الشخص الشائهة لم تبرح مخيّلته. ترى أين رآه قبل ليلة أمس؟ إنه يبدو وجهاً مألوفاً غاب عنه مدةً طويلة ثم عاد يُطالعه بعد أن تعاقب على الذاكرة آلافُ الوجوه.

انتبه من أفكاره على نداء المُصوِّر الجوّال بكاميرته الفوريَّة، الذي يعترضه كلَّ صباحٍ في شارع الكُرنيش فلا يلتفت إليه. اليومَ وجد نفسَه يمضي إليه ويأمُره بحزمٍ وحِدَّةٍ أنْ يلتقط له صورة.

وقف أمام آلة التصوير، وراح يُراقب الرجل وهو يُعدِّها لالتقاط الصورة. أما الحزم والحدة اللتانِ خاطبَه بهما فقد تلاشيا، وأخذ قلقهُ يتزايد. ماذا لو ظهر الشخصُ في هذه الصورة أيضاً؟ ماذا لو بدا أقرب ممَّا ظهر في الصور السابقة.. وإذا بصوت المصوِّر يهتف به أنْ يكفَّ عن التلفّت إلى جانبه. فنظر إلى الكاميرا و.. كليك!

تصبَّرَ حتَّى تظهَّرت الصورةُ في ضوء الشمس الشارقة. ثم تناولها من الرجل وعيناه القلقتان تسبقان يدَه إليها. حملق فيها وهو يُقرِّبها من عينيه. وانقضتْ دقيقة رهيبة وهو يتفحّصها في اهتمامٍ مُشتعل. ولما لم يجد للشخص من أثر في الصورة، دبَّ في قلبه ارتياحٌ جُرِمٍ منه منذ أمسِ، ورفع عينيه وهو يتنهَّد. ولكنْ سرعان ما هبط بعينيه إلى الصورة مرة أخرى، وجعل يتفحّص صورة وجهه.

اتسعتْ عيناه في ارتياع وهو يلمح في وجهه سِماتٍ من وجهِ الشخص.

10/10/2001

إصابة

مِنَ المعارفِ مَن يَوَدُّ المرءُ أَلاّ يَلْقاهم في طريقهِ أبداً. منهم الذي إذا لَقِيَك استوقفك على الرصيف أكثرَ من ساعةٍ ليُخبِرَكَ عن توعُّكِ صحتهِ. فيُدير لك رأسَك بحديثهِ عن دُوارِ رأسهِ. ثم يُصوِّر لك انطراحَه في الفراشِ حتى لَكأنَّك مكانَه، تُعاني من الحُمّى، والعرقُ يتصبَّبُ من جبينك. ويَصِف لك مرارة الدواءِ الذي تجرَّعه حتّى لَتكادُ تُحِسُّ مرارتَه في حلقك. ثم لا يَدعُك تواصلُ سيرَك حتى ينتهيَ من حديثه إلى تماثلهِ للشفاء. فتشعر بعدئذٍ بأنَّك أنتَ الذي شُفيتَ أخيراً من حُمّى حديثهِ الطويل.

وآخَرُ يُلقي عليك يدَه من وراءَ فيُحوِّلك عن وُجْهتك ليُصارحَك بأنه ذاهبٌ إلى عيادة الطبيب. ويتوسَّل إليك . وهو يشُدّ على منكبك . أنْ تذهبَ معه استئناساً بك وتشجُّعاً برفقتك. ولا يَنفكّ عنك حتى تشعر بالإعياءِ من إلحاحه ولجاجتِه، فتُوافق مُرغماً، مشترِطاً عليه ألاّ تطولَ الزيارةُ. وهناك في العيادة يطول انتظارُكَ للدَّور بين المرضى حتى يَثقُلَ جفناك، ولا تكاد تقْوى على رفع رأسك. وتأتي بعد ذلك المُعاينةُ فالتشخيصُ فوصفُ الدواءِ. وأخيراً تغادر العيادة مُرهقاً تعِباً وقد أدَّيتَ عنه أجرة الطبيب!

وأسوأُ من أولئكَ ذاكَ الذي يَدهمُك وهو على عجلةٍ من أمرِهِ لزيارة صاحبٍ له في المستشفى. فإنّك . مهما حاولتَ . لا تستطيع رفضَ دعوتهِ إيّاكَ أن تُرافقَه. يروح يُقدِّم إليك الدواعيَ في انفعالٍ وهو يجذبُك من ذراعك:

_ إنه صاحبُنا الذي تحبُّه. ألا تَوَدّ الاطمئنانَ إلى صحتهِ؟

وتجد نفسَك مَسُوقاً إلى المستشفى حتى قبل أن تعطي موافقتَك على الذهاب.

أُفٍّ منهم جميعاً! كم وددتُ لو أنني لم أعرِفْهم ولم يعرفوني! وهل أورثوني إلاّ الألمَ بمشاركتهم آلامَهم، والاكتئابَ بالتعاطف معهم؟ أَضِفْ إلى ذلك التأخُّرَ عمّا يشغلني من أمور معاشي.

من أجل هذا تعلَّمتُ كيف أتجنَّبهم كأعداءٍ لي كلّما لاحوا عن بُعدٍ في طريقي. فأُبقي عينيَّ يقظتينِ أتفحَّص وجوهَ المارّةِ من حولي حتى إذا برز لي أحدُهم متّجهاً نحوي أنتقل بخِفّةٍ إلى الجانب الآخر من الطريق مُحوّلاً عنه وجهي كأنني لم أَرَهُ. وألْجأ إلى تغيير ملابسي من حينٍ لآخر كَيْلا أَتميَّزَ بزيٍّ واحدٍ يَستدِلُّون به عليَّ. ولا أدخلُ من المطاعمِ تلك التي يَكثُر ارتياد

بعضِهم لها. وأبتعِدُ ما استطعتُ عن الشجارات المُتزايدة في حيِّنا، لأنني أعلم أنَّ كثيرين منهم يَستوقفهم الشجارُ حُبّاً بشهودهِ أو بالمشاركة فيه.

وقد تعلّمتُ أيضاً كيف أُجنِّبُ الأبرياءَ تعلُّقَ أولئك اللجوجين بهم في الطرق. من ذلك أنني ذات صباحٍ في أول تجوالي اليوميّ بأزقّةِ الحيّ لمحتُ فجأةً عند حاوية النفايات واحداً منهم. توقَّفْتُ بخفقةِ قلبٍ عنيفة. وبسرعةٍ انعطفْتُ إلى طريقٍ جانبيٍّ قبل أنْ تقع عليّ عيناه. ثم التفتُّ ورائي لأطمئنَّ إلى نجاتي فإذا بي أرى الرجلَ يتَّجِهُ نحو ولدٍ يلعب على الرصيف قربَ الحاوية. سيأخذه معه ولا شكَّ. سيقول له شيئاً من مثل:

_ أبوك مريض. تعال معي لنزورَه.

وكان الرجلُ اللجوجُ قابضاً على يدِ الصبيِّ البريءِ عندما اعترضت طريقَه.

التَفَتَ إليَّ بابتسامة صفراء. ثم دعاني قائلاً في حرارةٍ مُصطنعة:

_ تعال معنا.

سايرتُه خطوةً أو خطوتين وأنا أُحادثُه مُلاطفاً حتى تمكّنْتُ من إلْهائِه وتخليص يدِ الصبيِّ من قبضته. وبدفْعةٍ من يدي قويةٍ في صَدرهِ أَفْقدتُه توازنَه. وانطلقْتُ بالصغير نحو الحيِّ تاركاً الرجلَ يتقلَّبُ في النفاياتِ وهو يغلي من الغيظ.

غيرَ أنني منذ وقتٍ قريبٍ في طريق عودتي إلى بيتي بالحيِّ الشرقيِّ ترامى إلى سمعي تصايُحٌ وجَلَبة. ما الخبرُ؟ أمُدّ بصري فأرى شبّاناً عند مدخل الفرن يتشاتمون ويتوعَّدُ بعضُهم بعضاً. إنه خلافٌ على الدَّور فيما يبدو. ولا يَبْعُدُ أن يشتبِكوا في عراكٍ يجذُبُ إليه مَن أخشاهم. فَلأبتعِدْ عنهم. اسْتَدَرتُ راجعاً وأنا أتساءل في حنق: دائماً هكذا! متى يتفقون على نظام؟

وإذا بيدٍ تلطمني في ظهري بقوةٍ ودَوِيٍّ!

التفتُ ورائي بحركةٍ مُتشَنِّجةٍ، منزعجاً متألّماً فأجِد رجلاً واقفاً بسحنته المقيتةِ يبتسم ابتسامةً قاسيةً ظافرة. يسألني وهو يُضيِّق عينيه في تَشَفٍّ:

_ هل عرفْتَني؟

أتراخى مُستسلماً وقد أدركتُ أنه أوقعني أخيراً. ولا أستطيع إلاّ أن أردَّ على ابتسامتِه بابتسامةٍ هي أقربُ إلى تقلّص شفتيَّ بالألم منها إلى أيِّ شيءٍ آخر.

ويُعاتبني قائلاً:

_ أين أنتَ لا أَلْقاك؟

ثم يَشمل جسدي بنظرةٍ جائعة ويسألني:

_ كيف صحتُك؟

أحاول الإفلاتَ منه بشتى الأعذار. ولكنَّ نظرتَه الحادّة تشدُّني كأنه يرفعني مُعلقّاً برأس حَرْبة.

وما إن يَسألني:

_ أتذهب معي لعيادةِ صديقٍ لي أُصيبَ قبل قليل فنُقِل إلى المستشفى؟

ما أن يسألني ذلك حتى أمضيَ معه مسلوبَ الإرادةِ، وغايةُ ما أتمنّاه هو ألاّ تطول زيارتُنا للمصاب.

تحمِلُنا سيارةٌ تمضي بنا مُسرِعةً باتّجاه المستشفى. لا أنتبِه إلى الطريق لاستغراقي في الكرب. ثم أتنبّه على صفّارة سيارة إسعافٍ تدخل المستشفى من مدخل الطوارئ. ويلكزني الرجلُ قائلاً في لهوجةٍ واضطراب:

_ هذا هو صاحبُنا. هلمَّ نلحق به.

تتوقَّف سيارةُ الإسعاف أمام باب الطوارئ، ودَوِيُّ صفّارتها يُزعج الآذانَ. ويفتح رجالٌ بزيٍّ برتقاليٍّ البابَ الخلفيَّ للسيارة، ويَستخرِجون الرجلَ المُمدَّدَ على نقّالةٍ وهو يتلوّى.

ويحملونه إلى الداخل وصوتُ أحدِهم يرتفع مخاطباً الطبيبَ فيما يبدو:

_ أُصيبَ بطلْقٍ ناريٍّ في ظهرِه!

28 نيسان 2004

الكنباتُ الجديدة

فتح صلاحٌ بابَ الورشةِ مع الصباح الباكر. ودخل تستقبِله رائحةُ الخشب المُحبَّبةُ إلى نفسه. مرّتْ عيناه بكنباتٍ مركونةٍ في المدخل كان قد انتهى أمس من صناعتها. فتوقَّف عندها يتأمّلها بامتعاضٍ؛ إستقامةُ مساندِها تُتعِبُ ظهرَ الجالسين عليها . الخبرة تقول ذلك. لابدَّ للمسند من أن يميل قليلاً بظهر الجالس إذا أُريدَ من الكنبة أن تكون مُريحةً. غيرَ أنّ الزبونَ . وهو شيخٌ طاعنٌ في السن . إستعاذ باللهِ رافضاً أيَّ ميلٍ لمساند كنباته، مصرّاً على استقامتها . وإنْ أتعبتِ الجالسين.. عجوز مُتزمِّت.

أشاح صلاح بوجهه عن الكنبات وفي زاوية فيهِ ابتسامةٌ ساخرة. واتّجه إلى الداخل فجلس على مقعدٍ صغيرٍ بين ماكينات النجارة. وسرعان ما تنبَّه إلى أنه نسي هذه الابتسامة على فمه طويلاً. فأطبق شفتيه حتى تجهَّم وجهُه الجميل بعينيه السوداوين الحادتَي النظرة تحت حاجبيه المعقودينِ أبداً، وبأنفه الأقنى، وشاربيه الخفيفين، ولحيته الجذّابةِ بتركه لها بلا تشذيب.

منذ نعومة أظفاره وهو يعمل في ورشة الكنبات هذه لصاحِبها المعلم أحمد الذي علَّمه النجارة والتنجيد حتى فاقه صلاح مهارةً فكأنّ الخشب لا يملك إلاّ الامتثال ليديه الحاذقتين.

لذلك عهد المعلّم إليه بأشغال النجارة والتنجيد مكتفياً باستقبال زبائن الورشة، وسماع طلباتهم من الكنبات، والاتفاق معهم على التكلفة ومهلة التسليم.

وجاء المعلمُ أحمد بوجهه الطافح بالرضى. فحيّا الشابَّ الجالس صائحاً بأعلى صوته في دعابة:

_ كيف مزاجُك اليومَ؟

فابتسم صلاح الذي يكنّ لمعلّمه الحبَّ والاحترام متذكّراً مشادّة أمسٍ في شأن القياسات التي يُريدها أحدُ الزبائن لكنبةٍ أوصى بها. إذْ لاحظ صلاح أن الكنبة ستكون ضيّقة لا تتسع إلا لجالسٍ واحدٍ. فاقترح على الرجل أن يزيد في قياس طولها حتى تتسع الكنبة لآخر قد يرغب في مشاركته الجلوس. إلاّ أنّ الرجل المتعجرف قال إنه عازبٌ متوحّدٌ، وأكّد أنه سيبقى كذلك! فقال له صلاح حانقاً:

_ وإنْ نزل عليك ضيف؟

فأجاب الرجلُ كالحَ الوجهِ:

_ لا أستقبل أحداً في بيتي!

وغضب صلاح حتى أوشك أن يطرد الرجلَ من الورشة لولا أن تدخَّل المعلمُ أحمد داعياً صلاحاً إلى الصبر على الزبائن. واضطرَّ الشابّ في آخر الأمر إلى الموافقة على صناعة كنبةٍ لا تُرضي ميله إلى الكمال في صنعته.

جعل المعلم أحمد يتفحص الكنبات التي في المدخل بعينٍ خبيرةٍ وصلاح يتابعه من مجلسه متحفِّزاً وقد جاش بصدره الانفعال. وجلس المعلم على واحدةٍ منها كأنما ليمتحن إراحتها للجالس عليها. فبدا في جِلسته مُنحنيَ الظهرِ يكاد ينكفئ على وجهه! فهتف به صلاح ساخراً:

_ قُمْ عنها! فالوقوف أكثر راحةً لك من الجلوس على كنبةٍ كهذه!

فقام المعلم هو يقول في إشفاق:

_ كان اللهُ في عون ضيوفه.. ذلك الشيخ.

ثم مضى إلى المطبخ ليُعدَّ القهوة وهو يقول مُستدركاً في تسليم:

_ الزبون وما يُريد!

فاحتدَّ صلاح قائلاً:

_ بل يجب ألاّ نرضى بما يطلبه الزبون الجاهلُ إذا كان ذلك مِمّا يأباه الذوقُ العامّ.

هزَّ المعلّمُ رأسَه كمن يُريد إنهاءَ الحديث ودخل المطبخ فغاب عن ناظري صلاحٍ الذي وجد نفسَه وحيداً في مجلسه وفي موقفه.

إحتسيا قهوة الصباح. ثم نهض صلاح إلى المنشار الكهربائي الكبير فأداره وتناول ألواحاً من الخشب وراح ينشرها لطلب زبون. وتقدَّم النهارُ. وتراكمت النشارة عند قدمي صلاح. وتوقَّفتْ أمام مدخل الورشة شاحنةٌ قديمة الطراز ونزل منها حمّالون استقبلهم المعلمُ أحمد ودلَّهم على كنبات الشيخ فراحوا يرفعونها إلى صندوق الشاحنة، وصلاح يتابعهم ودمُه يغلي من الغيظ.

وجاء زبائن كثيرون استقبلهم المعلم بلباقةٍ. ونقل طلباتهم إلى صلاح بصوتٍ مرتفعٍ ليُسمعه فوق هدير المنشار. وكان الشابُّ يتسمَّع إليه عابساً من غير أن تكفَّ يداه عن نشر الألواح مكتفياً بدمدمة غيظٍ مبهمة.

ذلك لأنّ الشابَّ كان مقتنعاً بفهمٍ خاصٍّ لحسن صناعة الكنبات. وكان متعصباً لهذا الفهم:

_ على الكنبةِ أن تكون مُريحةً لصاحبها. وعليها ـ إلى ذلك ـ أن تكون مُتّسعةً له ولصاحبٍ له

قد يرغب في مجالسته.

لطالما قال صلاح ذلك للمعلم أحمد، ولزبائن الورشة، وردّده لنفسه وهو يقطع الأخشاب لصناعة كنبةٍ جديدة. وكان يُغيظه أنّ الزبائن كانوا يُصرّون على قياساتٍ ضيقةٍ للكنبات التي يُوصون بها.

أما إذا طرقتْ أذنيه قياساتٌ آنَسَ فيها صلاح شيئاً من السَّعة، تهلّل وجهُه الملتحي فأطفأ الماكينة مُسكِتاً صوتها الصارف المزعج. ثم أقبل على الزبون مُرحِّباً به، ومُهنِّئاً إياه على ملاءمة قياساتِه. ولكنْ..

_ لو زِدتَ في طول الكنبة وفي عرضها لكان ذلك خيراً لك ولضيوفك!

وما أسرع ما يثور غضبُ صلاح إزاءَ رفضِ الزبون للمبالغة في الزيادة التي يقترحها. وتنشب مشادة بين الاثنين فيتدخّل المعلم أحمد لصالح دافع المال. ويعود صلاح إلى ماكينته محمرَّ الوجهِ من الغضب وهو يلعن ويسبّ.

ولم يكنْ من النادر أن يغادر الشابُّ الورشة غاضباً وهو يحلف ألاّ يعود أبداً. فيضطر المعلم أحمد إلى زيارة الشاب الحرون في بيته لاسترضائه بما له عنده من اعتبار.

ويعود صلاح إلى الورشة في اليوم التالي، وفي الأيام التي تليه، على أملٍ يتجدَّد كلَّ يومٍ . وهو أنْ يأتيه زبونٌ بطلبٍ يُوافقُ المثال الذي يسعى إليه. فتقرّ عينُه بما يصنع.

حتى كان يومٌ دخل فيه الورشةَ مُتهيِّباً شابٌّ على عينيه نظارةٌ، وفي طوله أناقةٌ، يحمل بيده ملفّاً كبيراً. استقبله المعلم عند المدخل بترحابٍ وسأله عمّا يريد. ورفع صلاحُ وجهَه عن رسمٍ بيانيٍّ غير مكتمِلٍ لكنبةٍ كبيرة كان قاعداً يخُطّه بعودٍ في النشارة على الأرض. وراح يرمق الشابَّ باهتمامٍ من تحت حاجبيه المعقودَينِ. فرآه يفتح الملفّ ويستخرج منه أوراقاً ويعرضها على المعلّم. نظر المعلم في الأوراق مليّاً كأنه لا يفهم منها شيئاً، والشابُّ ذو النظارة يرقبُه بقلقٍ بادٍ حتى رفع المعلم عينيه في حيرةٍ إلى وجه الشابِّ ثم أقبل على صلاحٍ فناوله الأوراق وهو يقول له هامِساً:

_ أُنظرْ لعلَّك تفهم شيئاً من هذه الخربشة!

تناول صلاح الأوراق ونظر فيها وقلَّبها بين يديه. ثم التفت إلى الشابّ الواقفِ بباب الورشة ودعاه إلى الدخول وهو يتفرَّس فيه مستطلعاً. تقدَّم الشابُّ وهو يُثبِّتُ نظارته على عينيه فبادره صلاح:

_ ماذا تريد بهذه الرسوم؟

فابتسم الشابّ الأنيق في كياسةٍ وقال يُقدِّم نفسَه:

_ لم أتشرَّفْ بمعرفتك.. اسمي حسّان.

فقال صلاح مُخفِّفاً بعضَ الشيءِ من صرامة تقطيبتِه:

_ تشرّفْنا. اسمي صلاح. والآن هلاّ أوضحتَ لي هذه التصاميم.

انتحى المعلمُ أحمد جانباً وراح يتابع الشابينِ باهتمام وتساؤل. مَن هذا الشابُّ الذي يجذُب انتباهَ صلاحٍ على هذا النحو؟ وماذا في أوراقه؟ إنه . وهو المعلِّمُ . لم يستطع تصوّر ما يريده بتلك الخطوط المتباعدة جدّاً، والمتوازيةِ حتى تكاد لا تلتقي . ضمن مساحةِ الورقة . لترسمَ شكلاً مُحدَّداً. لعلّه تصميم يحتاج إلى أن يكتمل خارج الأوراق في ذهن دارسِه . كما هي الحال في التصاميم التي يرى لها أصحابُها أبعاداً لا يراها إلاّ قلةٌ من الناس؟ هاهو الشابّ يتكلم بحماس، وصلاح يُصغي إليه صامتاً على غير عادته مع الزبائن، وأصابعُه تتخلّل لحيتَه الثائرة.. آ! هاهي أساريره المُتقبِّضةُ عادةً تنفرج في ارتياحٍ فإذا به يضحك عالياً وهو يُعانق الشابَّ بقوةٍ ويهتف في حبور:

_ هذا هو التصميم الذي كنتُ أنتظره!

اقترب المعلم أحمد من موقف الشابين الفرِحين مسروراً بالربح المرتقب.

فهنّأ صلاحاً على رضائه أخيراً عن طلبٍ لأحد زبائن الورشة. ثم التفتَ إلى الشابّ الباسمِ وقال له بلباقة:

_ فلنتكلم الآن بالكلفة.

تجهَّم وجهُ حسان وبدا حرِجاً يُداري ارتباكه. ولاحظ صلاح ذلك فخاف ألاّ يكون الشابُّ قادراً على الدفع فيحبط المشروعُ الذي طالما انتظره.

وقال حسان في حياء:

_ ليس لديَّ إلا القليلُ من المال.

ثم مستدركاً في رجاء:

_ ولكنْ بتعاونكما معي نستطيع خفض الكلفة إلى مستوىً يقرُب من إمكانيتي المالية.

رأى صلاحُ الفتورَ في وجهِ معلِّمه فتزايد قلقهُ. غير أنّ الخيبة التي شعر بها تنعى إليه حُلُمَه . هذه الخيبةُ هي نفسُها التي استفزّتْ طبيعتَه المتوقِّدةَ إلى التشبُّث بفرصته لصنع شيءٍ تقرّ به

عينُه. فاندفع قائلاً للشابّ الخائب:

_ سنتدبّر الأمرَ. اذهبِ الآنَ مُطمئنّاً.

ذهل المعلم أحمد لتسرُّع صلاحٍ، وأوشك أنْ يعترض مستاءً. ولكنّ صلاحاً لم يُتِحْ له ذلك إذْ صافح الشابَّ السعيد ورافَقَه حتى البابِ وودّعه قائلاً في حماس:

_ عُدْ غداً.. باكِراً!

انتظر المعلّمُ انصرافَ الزبون ثم صاح بصلاح:

_ كيف ستتدبّر الأمرَ.. أمرَ قلَّةِ مالِ الزبون! دعْ جانباً تجاوزَك لي في الاتفاق معه.

فأقبل صلاح عليه وقال ملاطفاً:

_ لا تغضبْ يا معلم. ولا تعترضْ على المشروع الوحيد الذي رضيتُ به. فلطالما نفّذتُ لزبائنك تصاميم لم أكن أُطيقُها. أما عن المال فإنني أتنازل عن أجرتي. وإنّ لك عند معارفك من بائعي الأخشاب والقماش والاسفنج كلمةً لا تُردّ.

همَّ المعلّم بالاعتراض ولكنه عدل عنه كاظماً غيظه وهو يرى في وجه صلاحٍ إصراراً يعرف أنه لا ينثني من هذه النظرة البرّاقة بالتحدِّي. فانصرف ساخطاً مُدمدِماً.

وفي اليوم التالي عاد حسان بأوراقه فوجد صلاحاً في انتظاره. وشرح حسان مشروعه قائلاً بحماس:

_ أريد تأثيث صالة الاستقبال بالكنبات في دار استأجرتُها. أُحبّ استضافةَ الأصحاب. وأحبّ لهم أن يشعروا براحة، وأن يجدوا رحابةً لأصحابهم أيضاً. وقد وضعتُ في هذه الأوراق تصاميم لكنباتٍ كبيرةٍ تُحقّق لي ذلك.

وبسط حسان أوراقه على طاولة العمل أمام صلاح وواصل كلامَه وهو يُشير إلى الرسوم البيانية فيها:

_ أريد من الكنبة أن تحتضن الجالسَ عليها بحنانٍ بين ذراعين دافئتين. كما أريدها عريضةَ المقعدِ تتّسع لجالسين كثيرين.

وبعد أنْ حدَّد حسّان القياسات المطلوبةَ لذلك، قال ملخصاً:

_ الراحة والرحابة هما ما أُريده لضيوفي.

أصغى صلاح في غبطة إلى كلام حسّان، فكأنّه يتسمّع إلى نفسه تتحدّث. بل لقد عجب كيف استطاع هذا الشابّ أن يرسم في الأوراق، ما كان هو يتمنّاه في أعماقه، وإنْ لم يكن يعرف

كيف يُعبِّر عنه. هاهو أخيراً يلتقي بمن يُطلق له يدَيه الماهرتين ليصنعا أكثر الكنبات راحةً في العالم، وأوسعها رحابةً.

وفرك يديه في عصبيّة وهو يتحرّق شوقاً إلى البدء بالعمل.

غير أنه أبدى بعض الملاحظات التنفيذيّة التي طالَ في شأنها نقاشُ الشابين حتى أقرَّ حسّان أخيراً بوجاهتها فأدخلها في تصاميمه.

أما المعلّم أحمد فالحقّ أنه لم يبخل بتقديم كل ما يستطيعُه لتسهيل الطريق أمام مشروع الشابين. فقصد معارفَه الأقدمين من تجار الخشب. ثم رجع بعروضٍ لأجود الأخشاب بأرخص الأسعار. وكان سعيداً برؤية تلميذه صلاح طَلْقَ الأسارير، متألّقاً بالسعادة والنشاط.

وراح حسّان يجول على أصحابٍ له في المدينة ليُطلعهم على مشروعِه:

_ دارٌ تقضون فيها معاً أطيبَ الأوقات في راحةٍ ورحابة، تكون بديلةً عن مجالسكم المتفرّقة والضيّقة.

وإذْ تحمّسوا للمشروع صارحهم حسان بالحاجة إلى المال لتحقيقِه. ثم عاد وقد جمع مبلغاً أمكن به شراءُ الخشبِ الخام ونقلُه إلى الورشة.

وطاف صلاح بالأحياءِ المجاورة ثم رجع بجماعةٍ من الشبّان الأشدّاء تحمّسوا للعمل معه في المشروع.

وضجّت الورشة بالحركة. وتعالتْ فيها طقطقةُ الأخشاب، وهديرُ الماكينات، وأصواتُ الدقّ والحفر والنشر.

وهاهو صلاحُ بحزمه المرتسم في حاجبيه المعقودين، وقد التمعتْ قطراتٌ من العرق على جبينه، واغبرَّتْ لحيتُه بنشارة الخشب. يدور على العمال بعد أن وزّع الأشغال فيما بينهم من صقلٍ للألواح وتقطيعٍ وحفرٍ وتركيب. يُساعد هذا في رفع لوحٍ ثقيلٍ على سطح الماكينة الضخمة. ويُعيّن لذاك علاماتٍ في الألواح حيث تقرَّر أنْ تُثقَّب. ويُعاون هؤلاء على شدّ الأخشاب بعضها إلى بعض لإلصاقها بالغِراء.

وكان الشبّان يحبُّونه ويَستمَدّون من عَزْمِه عزماً، ومن تشجيعهِ هِمَّةً.

والحقّ أنه قلّما عرف الراحة في تلك الأيام. كان لديه دائماً ما يفعله؛ خشبةٌ لم تُصقل كما ينبغي، وأخرى لم تُثقب، وثالثة استعصتْ على المنشار عند العقدة. فيُعيد عليها العمل في احترافٍ لا تقف في وجهه صعوبة.

وكذلك كان حسان يُلاقي الجهدَ في تجوالهِ طوالَ اليوم لجمع المال اللازم لاستمرار العمل. ثم يعود بعد ذلك إلى الورشة للاطلاع على ما أنجزه الشبّان، والتأكدِ من مُطابقَتِهِ للتصاميم الموضوعة.

حتى إذا انقضى النهارُ وانصرف العمال جلس الشابان مُرهقينِ بين الألواح المصقولة والأخشاب المقطَّعة يستريحانِ.

ويمسح صلاح العرقَ عن وجههِ وجبينهِ بخرقةٍ باليةٍ ويسأل صاحبَه:

_ هل وُفِّقْتَ إلى جمع ما نحتاجه من مالٍ لشراء الدِّهان والقماش والاسفنج اللازم للتنجيد؟

ويسحب حسان من جيبهِ قماشةً صغيرةً يجلو بها نظارته ثم يضعها على عينيه المتعبتين ويقول:

_ أتوقّع خيراً من زيارتي اليومَ لأصحابٍ لي في أطراف المدينة. فكيف الحالُ مع عمّالك؟

فيقول صلاح في حنانٍ رقّتْ له عيناه الحادّتانِ:

_ إنهم متحمِّسون جداً حتى أنهم عرضوا التنازل عن أجورهم للمساهمة في توفير المال المطلوب للمشروع.

فيشدّ حسّان على ساعدِ رفيقهِ بامتنانٍ وهو يقول:

_ لولاك..

فيُقاطعه صلاح قائلاً في عُبوسٍ يُخفي به تأثُّرَه:

_ ولولاك ما كان كلُّ هذا!

على أنّ الأمر لم يخلُ من بعض الخلافات نتيجةً لعناد صلاحٍ . كما قال حسان للمعلم أحمد . أو نتيجةً لقلّةِ خبرة حسانٍ . كما قال صلاح . ولكنّ تلك الخلافات بين الرفيقين كانت تُحسَمِ دائماً بتدخّل المعلّم بحكمةٍ تحُدّ من جموح صلاحٍ، وخيالِ حسّان.

وفي عصر يوم زار صلاحٌ في رِفقة حسّانٍ الدارَ التي استأجرها على الشاطئ. وهي دارٌ كبيرة جداً، دائريةُ الهندسة. تبدو للرائي من بعيدٍ كأنها عائمةٌ على الماء لشدّة قربها من البحر. وصارَحَ حسّانُ رفيقه . وهما في طريقهما إلى الدار . بمشكلةٍ غريبة. قال إنّ للمستأجر القديم حارسينِ لداره عجوزَينِ لم يقتنعا بأنّ مدّة الإيجار قد انقضتْ. لذلك فهما مُرابِطانِ عند مدخل الدار ليمنعا كلَّ غريبٍ من الدخول إليها.

كان من رأي حسّانٍ أن يُحاوِلا إقناعَ الرجلينِ بأنَّ زمن صاحبهما قد انقضى.

إلاّ أنّ صلاحاً بحدَّتِه المعهودةِ أبى ذلك قائلاً وهو يُكوِّر قبضتَه ويُلوِّح بها:

_ لن يقتنِعا إلا بقبضتي.

وشمَّر عن ساعدَيه وهو يقترب من مدخل الدار عابساً. تبسَّم حسّانٌ ساخراً من حمِيَّة رفيقهِ وتقدَّمه خطوات راسماً على وجهه كياسةً ولطفاً.

على جانبي المدخل جلس رجلانِ طاعنان في السنّ. وما ان تنبّها إلى الشابّين يتقدّمان منهما حتى نهضا مُقطِّبين فتناولا عَصَوَيْهما الغليظتين ووقفا يحدِجانِ القادمَين بتوجّسٍ وارتياب.

اقترب منهما حسّان في أدبٍ وبادرهما بالسلام ثم قال لهما مُبتسماً في كياسة:

_ أنا المستأجر الجديد.

فكان الردّ أنّ أحدهما دفعه في صدرِهِ صائحاً بوحشيّة:

_ اذهب يا وقح!

فتقهقر حسّان حتى كاد ينقلب على ظهره. غير أنَّ صلاحاً الذي كان يتوثَّب من وراء رفيقهِ انقضَّ كالصاعقة على الرجل فلكمه في ذقنهِ وانتزع من يده العصا ورفعها بسرعةٍ ليصُدَّ بها عصا الحارس الثاني.. طق!.. ثم ركله في بطنه فتهاوى فوقَ زميله.

والتفتَ صلاح لاهثاً صوبَ حسّان الذي كان يتحفَّز لمؤازرة رفيقه. فدنا منه حسّان وربَّت على منكبه في إعجاب وقال له جذِلاً:

_ تعال لنرى الدار.

ارتقيا درجاً عريضاً انتهيا منه إلى بابٍ عالٍ. دفعه حسّان بيده فانفتح أمامهما على صالةٍ واسعةٍ عالية السقف، غير أنها مكتظة بالكنبات البالية الباهتة الألوان المنجردة القماش. دخلا فوجدا رائحة عطنٍ عميقة. وركل صلاح كنبةً اعترضتْ طريقه وقال لحسّان حانقاً:

_ أُنظر إلى هذه الكنبات ما أضيقَها!

فقال حسّان وهو يفتح نافذةً ليسمح للهواء بالدخول:

_ نعم. وما كان أقلَّ راحةَ الذين كانوا يجلسون عليها من ضيوف المستأجر القديم.

وإذا بصلاحٍ ينحني فجأةً فيرفع بين يديه كنبةً ويتجه بها ناحية النافذة المفتوحة كأنما يريد أن يرميها. فهتف به حسّان:

_ ماذا تفعل؟ من الحكمة أن نُبقيَ على هذه الكنبات فنبيعَها حَطباً للمواقد ونكسب بها ما يُعيننا على إعادة تأهيل هذه الصالة.

فوضع صلاح الكنبة أرضاً وهو يُهدِّئ من غضبه الناريّ ثم قال:

_ معك حق. ولكني أتحرّق إلى التخلُّص منها، وفرش الصالة بالكنبات الجديدة التي نصنعها.

تواصل العملُ في الورشة أياماً عديدةً حتى انتصبتْ ـ في ركنٍ أُخلِيَ لها ـ الهياكلُ الخشبيّة للكنبات الكبيرة. والحقّ أنها كانت كبيرةً جداً تتّسع إحداها لجالسَين وثلاثةٍ وأربعةٍ وخمسة..

إلاّ كنبةً واحدةً لجالسٍ واحدٍ اختصّ بها حسّان نفسَه دون الجميع، وعُنِيَ بتصميمها عنايةً خاصةً فأعلى مسندَها علوّاً كبيراً، وبالغ في ضخامةِ ذراعيها حتى كان لمنظرها وقعٌ وجلال.

أما لون دِهان الكنبات، ولون قماشها فإنّ حساناً لم يستطع إلاّ أنْ يُذعن لإصرار صلاحٍ على اللون الأحمر القاني . وإنْ كان أغلى الألوان.

كان يوماً تاريخياً . كما وصفه حسان . اليومُ الذي نُقلت فيه الكنباتُ إلى الدار .

نقلها عمالُ الورشة على ظهورهم بتوجيهٍ من صلاح الذي برزتْ عروقُ ذراعيه القويتين وهو يرفع معهم الكنبات الثقيلة. و كان حسان يتابع النقلَ من موقفه في أعلى الدرج منبّهاً الحاملين ألاّ تحتكَّ الكنباتُ بالجدران فيلحقها بعض التلف. ثم تعاون الشابان على تنسيق الصالة فوضعا الكنبات في صدرها و على الجانب الأيمن منها. أما على الجانب الأيسر فقد صفّ حسان كراسيَ بلاستيكيّة كثيرةً كان قد استقْدَمَها لاستيعاب ما قد يفيض من الضيوف عن سعة الكنبات.

وفي ليل اليوم نفسه أقُيم في الدار الاحتفالُ العظيم. ودعا حسّان أصحابَه كافّةً.

كما دعا صلاح رفاقَه من عمال الورشة و المعلمين و على رأسهم المعلمُ أحمد.

و حضر المدعوّون تباعاً. فقاد حسان أصحابَه و أجلسهم على الكنبات. أما رفاقُ صلاحٍ فاتخذوا مجالسهم على الكراسيّ الكثيرة.

وضجَّت الصالةُ بالتهاني والهتافات.

وعبّر أصحابُ حسّانٍ عن ارتياحهم إلى الكنبات الوثيرة. و عَجِبوا لرحابتها فجلسوا واحداً إلى جانب واحدٍ، ولا زالتِ الكنبةُ تتّسع لمزيدٍ.

وقام حسان بقامته الأنيقة عن كنبتهِ المفردة المتميّزة في صدر الصالة. ورفع يدَه باسماً مُغتبِطاً وهو يُقلِّب عينيه في الحاضرين من وَراء نظارتِه حتى ساد الصمتُ وتطلّعتْ إليه الوجوه المستبشِرة. وخطب قائلاً:

_ أيها الحفل الكريم. هاهو الوعدُ يُنجَز. و هاهو الأملُ يتحقّق. آن لنا أن نتمتّع بالراحة

والرحابة بعد التعب والضيق. هذه الدار مفتوحة لكم جميعاً. ولن تُغلق أبداً.

وتعالى التصفيقُ من الجانبين.

ثم التفتَ حسان إلى أصحابه قائلاً بامتنان:

_ أشكر لكم سخاءكم بالمال على مشروعنا. وأتمنى أن يعود إليكم أضعافاً.

وبعد فاصل تصفيق التفت إلى الجانب الآخر وقال:

_ وأشكر المعلم أحمد صاحب الورشة والمعلم صلاحاً وعمّالهِ. وأتمنى ألاّ يضيع أجر العاملين.

فضجّ العمال بالهتاف. وتهلّل وجهُ المعلم أحمد وبسط كفّه على صدره ممتنّاً.

أما صلاح فقد انتظر حتى أنهى حسان كلمتَه وعاود الجلوسَ. ثم قام وسطَ رفاقهِ

وكان لقدِّه الممشوق ووجهه الملتحي ولنظرة الصقر في عينيه المُظلَّلتين بحاجبيه المعقودين .

كان لكل ذلك هيبةٌ طاغية حتى أن رفاقه ضجوا بالهتاف من حوله.

قال بصوته القويّ النبرات:

_ كانت صناعة كنباتٍ تجمع بين الراحة والرحابة حلماً يُراودني من زمان. ولم يكن يُضايقني شيء مثل رؤيتي للناس راضين بالكنبات ضيقةً لا تُريحهم ولا تتسع لأصحابهم. حتى جاءني حسان بتصاميمه المبتكرة للكنبات هذه. ولقد أسهمْنا جميعا بصناعتها ويجب أن تسعنا جميعاً.

وصفق الجالسون. أما رفاق صلاح فوقفوا وهم يهتفون:

_ عاش المعلّم صلاح.. عاش عاش!

*		*		*

تواصلت استضافةُ الأصحاب يومياً في الدار.

وقد وجدوا في الكنبات الجديدة راحةً اشتاقتْ إليها أجسادُهم، ورحابةً سَعِدتْ بها أرواحُهم التائقة إلى التحابِّ والتآلف.

غير أنّ صلاحاً لم يكن راضياً من أوّل يوم عن استئثار أصحاب حسان بالكنبات المريحة تاركين لرفاقه الكراسيّ البلاستيكية.

وفي ذاتِ يومٍ وضع صلاحٌ بين يَدَي حسانٍ أوراقاً وقال له بلهجته الحازمة:

_ هذه تصاميم رسمتُها لكنباتٍ سنصنعها لتحلَّ محلَّ الكراسي. فانظر ماذا ترى.

كان حسان جالساً كعادته على كنبته الوثيرة. فرفع وجهه إلى صلاح الواقف قبالته وقال برقةٍ

واعتذار:

_ ستكلّفنا هذه الكنباتُ مالاً نحن أحوج إليه لمشاريع أخرى.

_ بل نستطيع تدبّرَ الأمرِ كما فعلنا أول مرّة.

فقال حسان بلطف مُحاوِلاً تخفيفَ الحِدّة التي أخذتْ ترتفعُ في صوت صلاح:

_ كانت أياماً صعبة ولا جَلَدَ لنا على إعادتها. فلننتظر حتى يتوافر لدينا المال.

فاكفهرَّ وجهُ صلاح. وبدا كأنَّ لحيتَه . التي واظب مُؤخَّراً على تهذيبها . قد عادتْ إلى عهدها في التشعُّثِ والهياج. وصاح بحسان صيحةً تنبَّه لها المطمئنّون على الكنبات، واستنْفرَ لها الجالسون على الكراسي فقاموا يتبادلون النظرات:

_ سأتدبَّر الأمرَ وحدي.

وخطف التصاميمَ من يدِ حسان الذاهل. والتفَتَ إلى عمال ورشته. وهتف بهم:

_ اتبعوني!

وغادر الدار عابساً مُصمِّماً ، ورفاقُه يتبعونه غاضبين.

17 أيار 2004

المسابقة

(أُهدي هذه القصة لولدي الآتي إلى هذا العالم)

أدركتْ أنَّ في عينيه كلاماً. وبدا لها كأنه يتهيَّأ لقول شيءٍ. إنه طلبٌ ولا شكَّ، فماذا يريد يا تُرى؟

كانتْ تعرف عنه التحفُّظ وعزّة النفس إذْ زاملتْه طوال سنوات الدراسة في الجامعة. وبعد تخرُّجهما وتوظّفهما واظبا على اللقاء عصرَ كلِّ يومٍ تقريباً في هذه الحديقة يرتاح هو إلى قربها، وترتاح هي إلى حرارته.

ولكنَّ الشابَّ في عصر ذلك اليوم بدا لها قلقاً على غير عادته، قَلَقَ مَن يُريد شيئاً ويَخشى أن يُرَدَّ خائباً. وسُرَّ قلبُها سروراً طالما تمنَّتْهُ.

وأخيراً كأنّ الشابَّ ضاق بتردُّدِهِ فثبَّتَ عينيه الحادتين في عيني الفتاة وقال باندفاعه المعهود:

_ اسمعي: ثمةَ مسابقةٌ بالجريدة بعنوان "أفضل موضوع إنشائيّ" والجائزة قيِّمة!

بُوغِتتِ الفتاةُ. وعَبَرَ عينيها الصافيتين ظِلٌّ من خيبةٍ. ثم قالت بحنق:

_ أهذا ما يُقلقكَ هذا القلقَ العظيم؟

فَشَدَّ على يدها برجاءٍ وهو يقول:

_ لا أستطيع الفوز بهذه المسابقة إلاّ إذا اشتركْنا معاً في كتابة الموضوع. فإنّ لديكِ موهبةً في الإنشاء إذا ما اقترنتْ بالفكر الذي لديَّ أنشأْنا معاً موضوعاً حظُّه في الفوز أكيد.

فغالبتِ الفتاةُ شعورَها بالخيبة والحنق. ثم سألتِ الشابَّ المتحمِّس:

_ في أية جريدةٍ هذه المسابقة؟

_ في جريدة "العالم اليوم".

فاحتدّتِ الفتاةُ قائلةً:

_ إنها جريدة مُتحيِّزةٌ لا نصيبَ لأمثالنا في الفوز بمسابقاتها.

فَرَدَّ الشابُّ عليها بقوةٍ ورجاء:

_ نحاول! وإذا وُفِّقْنا إلى موضوعٍ جيِّدٍ، فلابدّ أنْ يَفرِضَ نفسَه في مواجهةِ أيِّ تحيُّزٍ.

عاندتْه كثيراً على الرغم من شعورها بأنها لا تستطيع أن ترفض لعادلٍ طلباً، حتى انتهتْ إلى

الموافقة. بل إنها سَعِدتْ بموافقتها كما سَعِدَ هو. ورأتْ في عينيه تألُّقَ الأمل بالفوز فازدادتْ سعادةً على سعادة. وتناستْ خيبتَها الأولى كأنها لم تكن.

كانا حُرَّين في اختيار الموضوع، على أن يُسلِّماه إلى الجريدة خلالَ مدةٍ أقصاها آخر آب القادم.

وأَدلى إليها عادلُ بأفكارهِ. فراحت تعمل على صياغتها ببراعتها الفطريّة في الإنشاء. كانتْ أياماً شاقة. فقد كان على حنان أن تُعانيَ صعوبة إيجاد خير تعبيرٍ عن أفكار شريكها. بيد أنها كانتْ سعيدةً بشراكته. وقبل أيامٍ قليلةٍ من انتهاء مهلة تقديم المواضيع إلى الجريدة حَبَّرا معاً ما رأياه بحقٍّ "أفضل موضوع إنشائيٍّ" على الإطلاق.

ورفع عادل الموضوعَ بين يديه عالياً وقد استخفَّه الفرح وهو يهتف:

_ أنت الفائز، أنتَ الفائز!

ورفعتْ حنان إليه وجهها الشاحب من إجهاد الأيام الماضية، وابتسمتْ في فرح واهن.

وفي اليوم نفسه حمل عادلُ وحنان موضوعهما وذهبا معاً إلى مبنى جريدة "العالم اليوم" سعيدَين مُستبشِرينِ. تلقّاهما موظف الاستقبال في مدخل المبنى الضخم العالي بنظرةٍ متسائلة. فقال له عادل بفخار:

_ نريد الاشتراك في المسابقة.

فقال الموظف بتأفّفٍ لم ترتحْ إليه حنان:

_ ما أكثر المشتركين في هذه المسابقة.. آلاف!

فسألته بقلق:

_ وهل يضيع موضوعُنا بين تلك الآلاف؟

فأجابها الرجل مستدركاً:

_ لا يضيع شيء. لكلّ موضوع دورُه أمام اللجنة الحكم بالجريدة.

أدرك عادل أنّ حنان ما تزال قلقةً. وكان في الحقيقة يُشاركها شعورَها. إلاّ أنه لم يسمح لقلقه بالتعاظم فقال لها بحزْم:

_ لقد اتخذنا قرارنا بالمشاركة من قبل. ولا معنى للتردُّد الآنَ.

وتناول الموضوع برِفقٍ من يد حنان ودفع به إلى الموظف الذي تسلَّمه بآليّةٍ ليضُمَّه إلى كُداسة عاليةٍ من المواضيع المتسابقة. وغادر الاثنانِ المكانَ وهما يشعرانِ أنهما إنما تركا فيه قطعةً

منهما.

"آخر أيلول" موعد إعلان الموضوع الفائز بالجائزة.

كلمة طالما ردّدها عادل على مَسْمَعي حنان كأنه بترديدها يستعجل الأيامَ حتى تصل بهما إلى آخر أيلول.

أما حنان فكانتْ متوتِّرة الأعصاب قليلة الكلام وهي تستمع إلى عادل يؤكِّد لها . يوماً بعد يوم . إيمانَه بقدرةِ موضوعهما على إثبات نفسه أمام أية لجنةٍ مهما قيل عن انحيازها.

تباطأتِ الأيامُ في تزحزحها تباطؤاً أرهق أعصاب المنتظرَينِ على نار. حتى قالت حنان لعادل برجاء:

_ ألا نزور الجريدة للاستعلام عن المسابقة؟

فأجابها وهو يتنهّد:

_ ما زلنا في الحادي عشر من الشهر. وعلى كل حال يُمكننا الاتصال بالتلفون.

فقالت بنفاد صبر:

_ اتصلتُ مراراً ولا أحد يُجيب.

فاستغرب ذلك عادل. وقرّرا على الفور الذهاب إلى مبنى الجريدة.

ركبا سيارة أجرة. فانطلقتْ بهما عبرَ شوارع المدينة حتى توقّفتْ إلى جانب الطريق. وإذا بالسائق يقول:

_ هنا جريدة "العالمُ اليومَ".

نظرا فلم يُصدِّقا ما يقوله الرجل.

فهذا مبنىً هجره شاغِلوه تعمل آلةٌ عملاقة ذاتُ كرةٍ حديديةٍ ثقيلةٍ على تهديمه، وقد ترامتِ الحجارةُ من حولِه حتى كاد الغبار المتصاعد يحجُبُ الرؤية.

وهتفتْ حنان بالسائقِ العجوز كأنها تتّهِمُه بالخرف:

_ أهذا مبنى جريدة "العالمُ اليومَ"؟

_ نعم هذا هو أو كان هذا هو!

أخذ عادل بيد زميلته فنزلا من السيارة. تقدَّما من رجلٍ يقتعد كرسيّاً على الرصيف، يتابع أعمال التهديم، يبدو أنه الناطور. سأله عادل وهو يُحاول تمالُكَ انفعاله:

_ أين جريدة "العالم اليوم"؟

لم يُحوِّلِ الرجل عينيه عن الكرة الحديدية التي تلوِّح بها الآلةُ الضخمة في الهواء لتصطدم بالمبنى في عنفٍ ودَوِيٍّ مُهدِّمةً الجدرانَ، طاحنةً الحجارةَ، ناشرةً الغُبارَ الكثيف. ولكنه أجابَ عادلَ قائلاً في غير اكتراث:

_ توقّفتْ مؤقّتاً عن الصدور ريثما تُعيد بناءَ مقرِّها.

_ ولماذا يهدِمون البناءَ القديم؟

_ كان آخذاً في التصدّع لعيبٍ في هندسته.

فسألتْه حنان وهي لا تكاد تقوى على النطق:

_ وماذا فعلوا.. بالمواضيع المشاركة في المسابقة؟

فالتفَتَ إليها الناطور كأنه لا يعرف عمّ تتحدّث، ثم قال ببساطة:

_ لقد نقلوا الكثير من المستندات والأوراق، على أن يُعيدوها إلى المبنى الجديد. ولم يُخلّفوا إلاّ ما لا حاجة لهم به.

نظرتْ حنان إلى عادل كالمستغيثة. فآلمه عجزُه عن طمأنتها واستفزَّه حتى صاح بالرجل القاعد:

_ وما هو الذي لا حاجة لهم به؟

عبس الرجل وهو يحدج عادل بنظرةٍ حادةٍ. فخافت حنان أن يشتبكَ زميلُها مع الناطور الذي لا دخلَ له في الأمر، فحثَّتْ عادلَ على الذهاب وهي تعتذر للرجل بنظرة. فطاوع عادلُ يدَها ومَضَيا وهما في غايةٍ من الكدر والانزعاج.

وتساءلتْ حنان:

_ تُرى ما مصيرُ موضوعنا؟

فقال عادلُ لاهثاً وهو يَستعيدُ هدوءَه:

_ نقلوه معهم أو خلّفوه وراءهم لا أدري. ولكنني قلتُ لكِ إنّ موضوعنا سيُثْبِتُ نفسَه أمام أية مِحْنة.

5 نيسان 2004

الشاهدة*

*هي بلاطة تُنصَب على القبر ويُكتَب عليها اسمُ المتوفّى وتاريخُ وفاته.

لم أدرِ ماذا ذكّرني فجأةً . خلال نزهتي المعتادة في طرقات حيِّنا عند الغروب . بما فعلتُه منذ حوالي عشرة أعوامٍ وأنا بعدُ في الخامسة عشرة من العمر .

كنتُ مُستسلماً للذكريات تتداعى واحدةً بعد أخرى حتى تمثّلتْ لخاطري تلك التجربة القديمة متسلسلةَ الأحداث في وضوحٍ مؤثِّر. إذا بفعلتي يومَذاك تبدو لي مُنكَرَةً فظيعةً، حتى أنّ باطني ارتعش لها، وفاضتْ عيناي بالدمع.

كان ما فعلتهُ في ذلك اليوم البعيد واحداً من تلك الأفعال التي نأتيها في صغرنا من غير أن نفقه لها معنىً. حتى إذا كبرنا، وأنضجتِ السنواتُ وعيَنا، رجعنا ننظر فيها على ضوء معرفتنا المستَجِدّةِ لنفهم ما كان لها من معنىً لم نتنبَّهْ إليه في حينها.

منذ حوالي عشرة أعوام كنّا ننتظر بالبيت أنا وإخوتي الثلاثة، وقد هرع أبي في فجر ذلك اليوم بأمي الحامل إلى المستشفى لتضع مولودها الخامس، بعد أن أوصاني بالبقاء إلى جانب إخوتي باعتباري أكبرهم. وعند الظهر عاد أبي وحدَه مُكفهِرَّ الوجهِ. سألناه عن أمِّنا فقال إنها بخير. وإذا به يضع على الأرض وسط الصالة في رِفْقٍ لفافةً بيضاء وهو يقول في أسى:

_ هذه أختكم.. ماتتْ بعد ساعةٍ من ولادتها!

تحلّقناها في رهبة. وجثا أبي على ركبتيه إلى جانبها.

تملّكني . وأنا أنظر إلى الجثة الملفوفة . خوفٌ لم أعرفْ له سبباً واضحاً.

وما إن مدَّ أبي يديه إليها ليفكّ عنها اللفافة حتى هتفْتُ في فزع:

_ لا!

ثم أردفتُ وقد جَفّ حلقي، مسارعاً إلى التستر على خوفي الذي بانَ ولاشكَّ في عينيَّ:

_ لقد لَفّوها في المستشفى بخبرتهم! فاتركْها كما هي.

لا أدري لماذا استجاب أبي لي بعد تردّدٍ قصير، فاستردَّ يديه وترك الطفلة في اللفافة المُحزَّمةِ بورق التلزيق العريض.

وبعد دقائق من الصمت الرهيب . لا أذكر أن إخوتي حرّكوا شفاههم بكلمة . قام أبي متنهّداً وهو

يقول:

_ يجب أن ندفنَها!

رفعتُ عينيَّ إليه وإذا به يقول لي:

_ إذهبْ بها إلى المقبرة القريبة. واطلبْ من الحارس أن يدفنها إلى جانب جذع شجرة ثم أعطه ما يريد. ولا تنسَ أن تقرأ عليها الفاتحة.

فجفلتُ من ذلك. ولكنّ أبي قال في ضيق:

_ عليّ أن أرجع إلى أمِّك. فإنها تحتاجني.

وحمّلني الجثة الخفيفة بيدي، وحثّني على الذهاب.

في الطريق ازددتُ رهبةً على رهبة. وكنتُ أعاني جهاداً أليماً لإبعاد صور شوهاءَ راحتْ تلتمع في خاطري عن الجثة التي أحملها.

بلغتُ المقبرة بحِملي الخفيف الثقيل. وامتدّتْ أمامي القبورُ الصامتة. وشعرتُ كأنَّ نزلاءها التفتوا إليَّ وراحوا يرقبونني بمحاجرهم العظميّة! أم لعلّه الحارس كان يراني من حيث لا أراه؟ ولكنني بحثتُ عنه بعينيَّ من أقصى المقبرة حتى أقصاها فلم أجِدْهُ. تقدّمتُ بالجثة الصغيرةِ يُقلقني شعورٌ بأنني أنتهك حُرْمةً، وبأنَّ أحداً سينقضُّ عليَّ ويُمسِك بي مُتلبِّساً بجريمةٍ لا أدري ما هي. فسارعتُ أبحث بين القبور حتى عثرتُ بفُسحةٍ من الأرضِ ضيّقةٍ عرفتُ أنه لضيق مساحتها لن تمتدَّ لها يدٌ يوماً بالحفْر. فوضعتُ اللفافةَ جانباً. وبأصابعي المرتجفة رحتُ أحفر في التراب الرطب في عجلةٍ واضطرابٍ حتى بلغتُ عُمْقاً لا بأسَ به، فتناولتُ الطفلة المكفَّنة ولستُ أذكر.. لا بل أذكر أنني قرأتُ عليها الفاتحة بسرعةٍ ولهوجة، ثم أنزلتُها في الحفرة الضيقة وأهلتُ عليها الترابَ وسَوّيتُه فوقَها بعصبيّةٍ قبل أنْ أفِرَّ من ذاك المكان فِراراً.

لم أفهمْ يومذاك إلاّ معنى الخوف الغامض. أو أنّ الخوف ورهبة الموقف الأول إزاءَ الموتِ قد عطّلا ما كان يُمكن أن أفهمه أو أنهما قد أعْمَيَا بصيرتي. وبعد كل تلك السنوات، في مغيب ذلك اليوم، برزتْ لي فجأةً من أعماق ذاكرتي تلك الفعلة، فرأيتُها مُحمَّلةً بالمعاني:

في معارضتي فكَّ اللفافةِ عن وجه أختي رأيتُ ظلماً لها لا سبيل إلى رفعهِ أو التعويض عنه. فقد حرمتْها نظرةً من والدها وإخوتها إلى وجهها الحديث العهد بالوجود، نظرةً تراءى لي أنها كانت ستقول لنا فيها:

"انظروا إليَّ! ألا تَرَونَ أنني كنتُ سأصير.. سأصير شيئاً لولا.. لولا ذلك الشيء الذي لا

أفهمه"!

كانت تلك الطفلة التي رحلت باكراً جداً تستحق تلك النظرة منّا إلى وجهها قبل أن يُبليَه الترابُ. وفي خوفي منها يومذاك . وإنْ لم يكنْ من دخلٍ لإرادتي فيه . ظلمٌ لها أظنّ أنه . من هولِه . آلَمَها حتى وهي ميتةً لا تشعر! آلَمَها ولاشكَّ أن تُثير الخوفَ في النفوس وهي البريئة التي لا تعرف العداء ولا الشرّ. قابلتُها بخوفٍ في أول لقاءٍ لنا بها . وآخر لقاء. ثم دفنتُها في خوف أيضاً وفي عجلةٍ كأنني أُخفي سَوْءةً!

لم تكتنفْها في دقائقها الأخيرة فوق الأرض مشاعرُ الحزن والرثاء، ولكنْ الخوف والاضطراب والرغبة في الانصراف عنها بلا التفاتٍ!

وظلمٌ لها نسياني . على الأغلب . أين دفنتُها في المقبرة الواسعة. ضاعت في الأرض بلا دليلٍ ولا أثر. لم نبنِ لها قبراً ولم نَنْصِبْ عليه شاهدةً تقول للعابرين: "توقَّفُوا قليلاً وارثُوا لطفلةٍ انتهى عمرُها وما كاد يبدأ. وكان اسمُها.."

حتى الاسمُ بخلْنا به عليها فَحَرَمْناها التعريفَ كأنها لاشيء. وقد تناسيناها جميعاً . تلك الأخت الملفوفة في البياض . فلم نعد قط إلى ذكرها في مجتمعاتنا، ولا حتى فيما بيننا وبين أنفسنا . على أغلب الظن.

رجعتُ من نزهتي إلى البيت في تلك الليلة حزيناً مُثقَل الضمير. تطلّعتُ إلى أبي وأمي . الجالسَين في الصالة أمام التلفاز . بنظرةٍ تريد أن تستعلم ما إذا كانا يذكرانِ من آنٍ لآخر تلك الابنة التي لم تعش ما يكفي لطبع ذكراها في الأنفس.

وإذا بأمي تسألني وأنا أجلس قبالتهما:

_ تبدو حزيناً يا ماما.. ماذا بك؟

وددتُ أن أسألها عمّا بها هي من ذكرى أختي. ولكني خفتُ أن أثير حزنها أو أن أنكأ جرحاً ربما يكون قد اندمل. ومرةً أخرى خطر لي أن أختي تستحقّ أن نذكرها ونحزن عليها، لا أن ننساها كأنها لم تكن، إشفاقاً على أنفسنا من الحزن. وفي شيءٍ من الاندفاع قلتُ لها:

_ تذكّرتُ أختي!

_ أختك؟

فأجبتُها في إصرار وأنا ألحظ أبي الذي التفَتَ إليَّ في اهتمام:

_ نعم أختي التي لم تعش أكثر من ساعة.

تبادل والداي النظر وقد تجهّم وجهاهما. ولمّا رأيتُ سُهومَهما أطرقتُ وأنا أشعر ببعض الارتياح لإشراكهما في حزني، أو طمعاً في أن أجد لديهما عزاءً أو عذراً يُخفِّف عن ضميري المُثقَل.

طال الصمتُ كثيراً حتى قال أبي وهو يعود إلى مشاهدة التلفاز:

_ أما زلتَ تذكر؟

فاحتدَّتْ عينا أمي وهي تقول له:

_ وأنا ما زلتُ أذكر!

التفَتَ أبي إليَّ وقال لي برجاء:

_ هَلاّ أرحتَني من ذكرياتك.

فأدركتُ أنني لامستُ ألماً ما بَرِحَ مُلتهِباً في الصدور. وشعرتُ بالندم على إثارة تلك الذكرى. ثم ما لبِثتُ أن خجِلتُ بندمي هذا من أختي التي ينبغي أن ندين لها بالذكر لا بالندم على ذكرها. فقمتُ ولحقتُ بإخوتي في حجرة النوم.

وإذا بدمدمة شجارٍ أو نقاشٍ حادٍّ تترامى إليَّ من الصالة وأنا أبحث في مكتبتي عن كتابٍ أتعزّى بقراءته حتى سمعتُ أمي تقول بحُرقة:

_ حرمتَني أن أراها، أن أضُمَّها إلى صدري فأَهَبَ جسدَها الصغيرَ شيئاً من حرارة حناني قبل أنْ يبتلعَها الترابُ البارد..

وانقطع صوتُها في نحيبٍ مكتوم.

في صباح اليوم التالي كان الجوّ لا يزال متوتّراً بين أبي وأمي على مائدة الإفطار. كان هو مُتجهِّماً وكانت هي حادة الطباع تنتهر إخوتي لأقل هفوة. وإذا بأبي يسألني في هدوء:

_ ماذا ذكّرك أمسِ بالمرحومة أختك؟

كفَّت يدا أمي عن تقطيع الجبنة، وتوقّف إخوتي عن الشجار.

استجمعْتُ شجاعتي وقلتُ مدفوعاً بعمق إحساسي بظلمنا لأختي:

_ فكَّرتُ في أننا كان يجب أنْ نبني لها قبراً وننقش اسماً لها على شاهدته!

نظرتْ إليَّ أمي في كآبة. أما أبي فعاد يسألني . وكان معتاداً على سماع "غرائب الثقافة" مني، كما كان يُسمِّيها في تعجُّبٍ وإعجاب معاً:

_ وما نفعُ إثارة هذا الآن؟

فقلتُ في تألّم:

_ لقد ظلمناها ظلماً فادحاً يا أبي بطمس ذكراها كما فعلْنا. ويا ليتنا نستطيع رفعَ بعض هذا الظلم عنها.

خَفَضَ أبي عينيه متفكِّراً في كلامي. وإذا بأمي تقول كأنها تُؤنِّبُ نفسها:

_ حتى أني لم أزرها مرةً..

ثم قالت بقوةٍ وقد اغرورقتْ عيناها:

_ تناسيتُ حزني عليها بكم.

وشملتْنا أنا وإخوتي بنظرةٍ تبحث فينا عن عزاء.

* * *

تهيّأ لي أنني إذا عشتُ مرةً أخرى الحالةَ التي كنتُ فيها يومَ ذهبتُ إلى تلك المقبرة لأدفن أختي، فإنّ ذلك سيساعدني على تذكّر البقعةِ التي طمرتُها فيها.

انتظرتُ اقترابَ الظهيرة في الصالة وأنا أستحضر الموقف الذي كان منذ عشرة أعوام. ثم غادرتُ البيتَ فسلكتُ الطريقَ نفسه إلى المقبرة حاملاً في يدي لفافةً من القماش الأبيض إمعاناً في استحضار الماضي.

بلغتُ المقبرةَ فدخلتُها كالمُحاذر وأنا أجول ببصري في مساحتها الواسعة. تكاثرت القبور وتزاحمتْ، وارتفع العشب بينها حتى بدا لي كأنه لم يبقَ من موطئٍ لقدم.

مشيتُ بين القبور شادّاً اللفافةَ إلى جنبي، أعاني إحساساً بالغربة في دنيا منقطعةٍ عني، ليس فيها ما يعرفني. وعاودني شعوري القديم بأنني مُراقَبٌ . لا بحيادٍ وقلة مبالاةٍ . كما كان الأمرُ منذ عشرة أعوام . بل بتوجُّس وعداء. وطوّقتْني الوحشةُ حتى خطر لي أن أتراجع مُنكفئاً مطروداً. وغصتُ في اليأس وأنا أتلفّتُ حواليَّ كالمذنب الذي يترقّبُ أن يُضبَط.

وإذا ببقعةٍ من الأرض، ضيّقةٍ بين القبور ، معشوشبة، تشدّ عينيَّ بقوة. وللحال تبدّدتْ وحشتي وزايلني اليأسُ. اقتربتُ منها وأنا أجد أُنساً وراحةً. وضعتُ اللفافةَ إلى جانبها، وجثوتُ على ركبتيّ:

_ سامحيني يا صغيرة!

* * *

في مساءِ ذلك اليوم كان يغشانا ما يُشبِه الحِدادَ في جلستنا بالصالة؛ التلفازُ مُطفَأٌ أسودُ الشاشةِ، والأجفانُ مُسْبَلَة. ثم خرقتْ أمي الصمتَ مُعلِنةً في ارتياحٍ بدا في إشراقِ وجهها بعد

تجهُّمه السابق:

_ سنزور أختَكم غداً.

والتقتْ عيناها بعيني أبي في تفاهمٍ حزين. ثم التفتَ إليَّ أبي وسألني:

_ هل تذكر مدفنَها؟

_ نعم. وقد زرتُه اليومَ.

فقال أبي مُقطّباً في تصميم:

_ سأبني لها قبراً!

وهتف أحدُ إخوتي:

_ ماذا سنُسمِّيها؟

فأجبتُ من فوري وأنا أُردِّد بصري بين أبي وأمي:

_ شهيرة!

فابتسم أبي بحنان وقال:

_ شهيرة.. نعم.. بعد طول طَمْس.

لم يتأخَّر أبي بعد ذلك فيما كان ينبغي عليه القيامُ به قبل عشر سنوات. وبعد أيامٍ قلائل مضينا جميعاً في الصباح لزيارة أختي في قبرها الجديد، وقد ضمَّتْ أمي إلى صدرها باقةً من الزهر الأبيض.

بدا القبرُ صغيراً يُشرق فيه بياض الرخام الناصع، وتنتصِبُ فوقَه عند موضع الرأسِ من أختي شاهدةٌ عالية. بل لقد حرصنا على أن تكون أعلى من مثيلاتها في القبور المجاورة. وقد نُقِشَ فيها بالحَفْر العميقِ المطليِّ بالدِّهانِ الأسود:

(يا أيّتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية)

هذا مرقد الطفلة شهيرة

ولدت في السادس والعشرين من أيار عام 1980

وتوفيت بعد ساعة من ولادتها

جلسنا من حول القبر. وقرأ أبي الفاتحة مع اخوتي على روح صغيرتنا الفقيد. وانحدرت دمعةٌ على خدِّ أمي وهي تضع باقة الزهر على سطح القبر.

وكان يمرّ بنا في جلستنا بعضٌ من زوّار المقبرة. وكنتُ سعيداً إذ ألحظ أعينَهم تقرأ الشاهدة،

وألمح شفاهَهم تتمتم بتلاوة الفاتحة أو بكلمات الرثاء. وثبتَتْ عيناي على باقة الزهر هُنيهةً، ثم مَدَدْتُ يدي إلى ربطتها الورقية العريضة أعالجها. فرفع أبي وجهَه إلي وسألني:

_ ماذا تفعل؟

_ أفُكّ عن الزهرات هذه الربطة التي تُخفي عروقَها الخُضْرَ الجميلة.

ولكنّه استبطأني كما بدا فتناول الباقة من يدي بعصبية وراح يفك ربطتها حتى نزعها عن الزهرات وألقاها بعيداً ثم طرح الباقة برفقٍ على سطح القبر الرخاميّ. ونظر إلى أمي باسماً في ارتياح كأنما يُشهِدُها على جمال الزهرات التي بدتْ إذّاكَ كأنها تبسِمُ لنا بثغورها البيضاء.

أيلول 2003

كتابٌ ليس للقراءة

المقدَّمة

أيُّها القارئ. إني مضطَّر اضطراراً إلى افتتاح كتابي هذا الذي بين يديكَ بالمقدَّمةِ التالية:

اقطعِ القراءةَ حالاً!

أَلْقِ بهذا الكتابِ من يدكَ، وابحثْ لنفسكَ عن شاغلٍ غيره! إنه من سوءِ حظِّكَ أن عرف هذا الكتابُ طريقَه إليك. تخلّصْ منه على الفور حتى قبل أن تقرأ الجملةَ التالية.

ولكنْ إياك أن تُعطيَه إلى صديقٍ ولا إلى عدوّ . رحمةً بصديقك، ورِفْقاً بعدوِّك!

أرى أنك تواصلُ القراءة؟ أتظنُّ أنني أستخدم المنعَ حيلةً لإثارة فضولك؟ فأمنعُك من قراءة هذا الكتاب لا لشيءٍ إلاّ لحملك على مواصلة قراءته؟

لا أيها القارئ. وحياتِك الغالية التي أحاول حِفْظَها لك من التنغيصِ والكدر أُتركْ هذا الكتابَ.

أم أنك تستمرّ في قراءته حتى تبلغَ الخاتمة جَرْياً على عادتك في قراءة الكتب؟ ولكنّ الخاتمة بيدكَ أنت. أطبِقْ هذا الكتابَ الآنَ فتبلغَ في الحال خاتمةً سعيدةً هي خيرٌ ألفَ مرةٍ من الخاتمة المشؤومة التي تسعى إليها عيناك على هذه الصفحات. وإذا كنتَ من هواة القراءة، ولا تستطيع في جلسةٍ هادئة مع فنجان قهوةٍ إلاّ أن تتصفّح كتاباً، فإنّ في غير هذا الكتاب غنىً عنه وسلوى. إقرأْ كتابَ شعرٍ وخيال. وهو ما يُوصى به عادةً بديلاً عن كتابي.

فكتابي هذا . وإني أعجبُ كيف لم يسبِق لك أنْ سمعت به . قد مَلأَ الدنيا ذعراً وجزعاً يومَ انتشر بين الناس: عَمَّتِ الفوضى، وتعطّلتِ الأعمال.. ألا تُصدِّق؟ آهِ لو رأيتَ الناسَ كالسكارى في الطرقات من وَقْع الحقيقة التي دَهَمَتْهم في هذا الكتاب . وكانوا من قبل في غفلة. وتدخّلتِ السلطاتُ لإعادة النظام العام. حظرتْ إعادة طبع الكتاب. لاحقتْ كلَّ من روَّج له، حاولتْ سَحْبَه من التداول. أحرقتْ ما صادرتْ من نُسخه. استأجرتْ كُتّاباً للردِّ عليه "ودَحْضِ مزاعمه".

أما وقد وصلك كتابي أيها القارئ السيِّءُ الحظ، ولم تَتَبِّعْ تحذيري لك من مواصلة قراءته . كما يظهر من قراءتك هذه الكلمات . فإنّ إلحاحَك في طلب المعرفة يُلزمني بما للعلم عليَّ من واجبٍ أنْ أُعلِمَكَ بالحقيقة مهما كان إشفاقي عليك من فظاعتها. وإذا سألْتَني أَوّلاً لماذا قدَّمْتُ

لكتابي بالتحذير من قراءته، فإليك الجوابَ.

بعدَما عَمَّ الاضطرابُ وساءتِ الحالُ ووقفتِ السلطاتُ عاجزةً عن إعادة النظام العام، سعى إليَّ الوسطاءُ لعلِّي أتدخّلُ بما اكتسبتُ عند الناس من سلطة فكرية فأردّ إليهم شيئاً من الهدوءِ والتصبُّر . وذلك بأنْ أُعدِّلَ الحقيقة وأُهذِّبها أو أُلطِّف من وَقْعها . على حد تعبير الوسطاء.

بيد أني . باعتباري باحثاً ذا ضميرٍ علميٍّ حيٍّ . لم أقبلْ مساومةً على الحقيقة. ولم أُرِدِ التمويهَ على الناس، رافضاً كلَّ العروض والإغراءاتِ، وحتى التهديدات المبطَّنة. ثم اقتنعْتُ في آخر الأمر بضرورة إعادة شيءٍ من الهدوءِ والاستقرار إلى المجتمع. فقبِلتُ أن أفتتح كل طبعة جديدة لكتابي بمقدَّمةٍ أُحذِّر فيها من قراءته، لقاءَ رَفْعِ السلطاتِ الحظرَ عن طبْعه وتوزيعه.

وعلى توالي السنوات هدأتِ النفوسُ، واستقرّتِ الأوضاعُ أو كادتْ، وعادتْ عَجَلةُ الحياةِ إلى الدوران . كما تشهدها في أيامك هذه يا قارئي السعيد . لانصرافِ أكثر الأجيالِ . كما يبدو . عن قراءةِ كتابي الخطير اتّباعاً لتحذيري.

على أنه لا يغيب عن فطنتي . وأنتَ تتحرَّقُ شوقاً . ولا شك . إلى معرفة الحقيقةِ التي أعرضها في كتابي . أنّك ربما تكون ككثيرين غيرَك مِمَّنْ قد عرفوا هذه الحقيقة من زمانٍ بعيدٍ، وتكرّرتْ على مسامعهم حتى صارتْ لديهم أمراً معروفاً، مُبتذَلاً، مَمْلولاً، فاقداً للجِدَّةِ المُثيرةِ للاهتمام.

فإذا كنتَ من هؤلاءِ فإنّك . على الأرجح . ستتلقّى هذه الحقيقة في ضجرٍ ولا مُبالاةٍ، بل في هُزْءٍ بي وبكتابي. وهذا خيرٌ لك! وإني لأغبِطكَ على هذه النعمة. أما إذا كنتَ تجهل هذه الحقيقة أو كنتَ تعرفها من قبل ولكنّك مثلي ومثل القلّة ممَّن لا يُخفِّف من وَقْع الحقيقة تكرارُها على مسامعهم، فإني أُشفِقُ عليك من وقْعها الصاعق، وأرثي لك ولنفسي وللقلة من أمثالنا. فلنتصبَّرْ . وَلْنتبادلِ العزاءَ!

كلمة أخيرة في شأنِ فهرسة الكتاب:

الكتاب مقدّمةٌ وفصول. بعد هذه المقدّمة سأكتفي في الفصل الأول بالنصّ على الحقيقة الأساسية تاركاً للفصول اللاحقة شرحَ معاني الكلمات كلمةً كلمةً.

الفصل الأوّل

ثَبَتَ لي بالملاحظة المتكرِّرة، أقول "المتكرِّرة"، أنَّ الناسَ جميعاً . بمن فيهم أنتَ أيّها القارئ التعيس . سيموتون عاجلاً أم آجلاً!

تموز 2003

ألم الركبة

لم أكن راضياً كلَّ الرضى عن مجرى حياتي. غير أنها . حياتي . كانت على أي حالٍ تجري. أما أنْ تتوقّفَ عن الجريان، فهذا ما لم أكن أتصوّره قبل تلك المصيبةِ التي اعترضتْ مجرى حياتي فسدَّتْه سدّاً.

كنتُ ذاتَ يومٍ جالساً في مقهى على الرصيف أرصد فتاةً جميلةً دخلتْ دكاناً على الرصيف المقابل بعد أنْ رمتْ ناحيتي بنظرةٍ واعدة. فقرّرتُ أن ألحق بها حالما تخرج من الدكان. وفي انتظارها . وقد أقلقني التحفُّزُ . رحتُ أنقر بإصبعي على ركبتي اليمنى. وإذ بي أتنبَّهُ إلى ألمٍ خفيفٍ بها. ساورني الجزعُ، كعادتي كلما شعرتُ بوخزة ألم، وتركتُ الفتاةَ لشأنها مُنصرفاً إلى ركبتي أتفحّصُها؛ أنقر عليها نقراً متواصلاً فأتلقّى ألماً يزداد حدّةً! استولى عليّ الجزع ومددتُ رِجْلي وقد تقلَّصَ وجهي بالألم والخوف.

سألني بعض الجالسين عما أصابني فشكوتُ لهم ألم ركبتي وأخبرتُهم كيف كَشَفَ عنه نقري بالإصبع عليها.

بدا من بعضهم استهزاءٌ بألمي واحتقارٌ لجزعي، فصحتُ بهم بصوتٍ مزَّقه الألم:

_ لعلّ بركبكم ما بركبتي من ألم، إلاّ أنه كامِنٌ ينتظر الكشفَ عنه!

فَنَقَر أحدُهم على ركبتِه باستهانةٍ وهو يقول:

_ أما أنا فلا أشكو ألماً.

فقلتُ مدفوعاً بشيءٍ من الحسد:

_ ما هكذا يكون الكشفُ عن ألم الركبة. دعني أكشف عنه.

ومددتُ إصبعي إلى ركبته. ورحتُ أنقر عليها نقراً كالذي كشفتُ به عن ألم ركبتي. فما لبث الرجلُ أن صاح في تألُّمٍ بَيِّنٍ:

_ آخ.. ركبتي!

ارتَدَدْتُ عن الرجل في ظَفَرٍ وتَشَفٍّ وأنا أقول في ارتياحٍ إلى مشاركةِ الآخرين لي في ألمي:

_ يبدو أننا جميعاً نشكو من ألمٍ كامِنٍ في رُكبنا.

وانتشرتْ في المقهى من حول طاولتي حركةٌ محمومةٌ من النقر على الرُّكب.

منذ ذلك اليوم المشؤومِ وعددُ المصابين بألم الركبة يزدادُ باطرادٍ.

اكتظَّتْ بالمرضى غرفُ الانتظار بعياداتِ الأطبّاءِ. ولكنّ الأطبّاءَ لم يعرفوا لألمِ الركبة سبباً ولا علاجاً. وتضاربتِ التفسيراتُ. وراح الناسُ يتداولون وصفاتٍ شعبيّة. ولكنها لم تنجحْ إلاّ في زيادة الألم!

وباتَ الناسُ في همٍّ مُقيمٍ، لا حديثَ لهم إلاّ ألم الركبةِ الذي اجتاح المدينة في أيامٍ معدوداتٍ فتعطّلتِ الأعمالُ وخَلَتِ الطرقاتُ إلاّ من القاعدينَ على الأرصفةِ مادِّين أرجُلَهم، مائلينَ على ركبهم في تألّمٍ شديدٍ، أو الساعينَ بعكازاتٍ نحو مدَّعي المقدرة على العلاج بالطبِّ العربيّ القديم، وقد نبتوا في المدينةِ كالفطْر عقبَ المصيبة الكبرى.

أما أنا فلم أدَعْ طبيباً إلاّ زرتُه، ولا علاجاً إلاّ جرّبتُه، وحال ركبتي تزداد سوءاً.

ذهلتُ عن نفسي وعن كافة شؤون حياتي. ولزِمْتُ فراشي مُحْمَرَّ العينينِ من الأرقِ، نابتَ الذقنِ، عاصباً ركبتي التي بدتْ كالمتورِّمةِ تحت الأربطةِ البيضاء. أُفكِّر في علاجٍ، فلا يهديني عقلي المُجهَد إلى شيءٍ من أمر هذا الألم العنيد الذي بدا كأنه يزداد حِدّةً بعد كلّ محاولةٍ لعلاجه.

وتمضي الأيامُ صعبةً ثقيلة، ولا أجد سبيلاً إلى الشفاء. وأذكرُ شواغلي التي قطعتْها هذه المصيبة، والمواعيد التي أخلفتُها. أذكرُ تلك الفتاة الجميلة التي دعتْني ذلك اليومَ بعينيها الساجيتَينِ إلى اللحاق بها. فيفيض قلبي بالأسى على نفسي، وأهتِفُ في قهر:

_ متى أشفى فأستأنِفَ حياتي؟

وتنحدر من عيني دمعةٌ حارّة.

ويوماً وقد ضقْتُ باستسلامي إلى الرقاد، رأيتُ أنْ أتحاملَ على ركبتي فأنزل إلى الشارع.

وبعد كثير من التردّد رأيتُني أهبط الدرجَ مُتوكِّئاً على عُكّازٍ، مُحاذِراً أشدَّ الحذرِ ألا ألقي بثقلي على رجلي اليُمنى. مشيتُ بعكّازي خطواتٍ في الشارع المقفر. إلا أنني سرعان ما قرّرت أن أريح ركبتي. وفي إشفاقٍ شديدٍ جلستُ على حافةِ الرصيفِ مادّاً رجلي، وعلى جبيني تقطيبةُ تألّمٍ. وإذا بشابٍّ على دَرّاجةٍ هوائيةٍ يلوح آتياً من آخر الشارع!

تابعتُه بذهولٍ وهو يقود درّاجته مُعافىً سليمَ الركبةِ حتى توقَّفَ إزائي. استند إلى الأرض برجله اليمنى وسألني في استغرابٍ:

_ أين الناسُ في مدينتكم؟

وما تمالكتُ إلا أن سألتُه:

_ ألا تشكو ألماً في ركبتك؟

فقال بتوجُّسٍ:

_ لا.. لماذا تسأل؟

_ يبدو أنك تزور المدينة لأول مرة، أو بعد غيابٍ طويل. الناسُ هنا يعانون ألماً في ركبهم، لا نعرف له علاجاً. هل تسمح أن أنقر بإصبعي على ركبتك؟

ومددتُ يدي صوبَ ركبتِه. ولكنّه حيّد ركبته في انزعاجٍ، وقال بجفاءٍ:

_ دعْ ركبتي. ما بها شيء.

_ لن تعرف ذلك حتى تنقر عليها بإصبعك. دعني أفحصْها لك.

بيد أنه رفع رجله إلى الدوّاسة مُستاءً وابتعد بدرّاجته وهو يقول:

_ لا أريد أن أعرفَ!

عجبتُ من مُكابرته وعناده. كيف يمضي خاليَ البالِ؟ وما ضرَّ لو كان توقّف قليلاً فتفحّصَ ركبتَه. فإذا اطمأنَّ إلى سلامتها ممّا يُنغّص الحياة مضى لشأنه، أما إذا كشف فيها عن عِلّةٍ داواها. وله بعد ذلك أنْ يواصلَ حياتَه.

غير أنني لم أذكر ذلك الشابّ إلا بعد أيامٍ وليالي من المعاناةِ بلغ بي الجزعُ فيها أنْ تمنّيت لو لم تكن لي رِجلٌ ولا ركبة!

ذكرتُ قوله "لا أريد أن أعرفَ"، وحركةَ رِجلهِ على الدوّاسةِ. فأدركت قيمةَ التجاهل، وحسدتُ الشابَّ على قدرته عليه. يا ليتني لم أُلْقِ بالاً إلى الألم الخفيف الذي كشَفْتُ عنه في ركبتي يومَ نقرتُ عليها أوّلَ مرة.

وتساءلتُ في شكٍّ:

_ هل أستطيع تجاهل علةٍ في ركبتي اعتملتْ في خاطري حتى مَلَكتْ عليّ أمري وشغلتْني عن حياتي؟ والألم. كيف أتجاهلُ وخزاتِه الحادّة؟

وتأوّهتُ من الأعماقِ. آه.. ما أعمق البلوى التي غرقتُ فيها!

وكَمَن يبذلُ آخرَ جهدٍ للنجاةِ قبلَ أنْ يبتلعَه الغرقُ، قلتُ لنفسي: "فَلأحاوِلْ تجاهلَ علَّتي. وماذا أفدتُ من الالتفاتِ إليها غيرَ تعطيل حياتي؟ ولأجتنِبْ كلَّ ما يُذكِّرني بعلَّةِ ركبتي، ولأكُفَّ عن النقر عليها وإثارتها".

الحقُّ أني لم أكن واثقاً بسلامة تفكيري، وعَدَدْتُه نوعاً من هذيانِ المحمومين أو أماني اليائسين. ثم عدتُ فقلتُ لنفسي: إما التجاهل وإما الوقوفُ بالحياةِ عند حاجز الجزع والخوف.

وبحركةٍ سريعةٍ قاطعةٍ للتردّدِ، حَلَلْتُ الأربطةَ عن ركبتي وقمتُ فمسحتُ عن الطاولة بجانب سريري ما كنتُ قد صَفَفْتُهُ عليها من قوارير الدواء وتقارير الأطباء، فَجَمَعتُها في كيسٍ ورميتُ به في سلة المهملاتِ. ولم يَثنِيني عمّا هَمَمْتُ به الوخزةُ الحادّةُ التي اخترقتْ ركبتي فكادتْ ترميني أرضاً وأنا أخطو نحو السلّة.

حدثاً عظيماً كان وقوفي بباب بيتي مُتأهّباً للنزول إلى الشارع بلا عكازة. تشدّدتُ وأخذتُ أنفاساً متتابعة ثم مضيتُ أنزل الدرجَ بخطواتٍ حذرةٍ عاضّاً على أسناني في حزمٍ، عاقداً حاجبيَّ في تصميم، أحاولُ تجاهلَ الألم الذي ثار بركبتي كالوحش جُنّ جنونهُ إذْ رآني لا أكترث له.

كدتُ أتخاذلُ، وفكّرتُ مرّاتٍ بالرجوع والانكفاءِ. بيد أني عُدتُ فاندفعتُ بإرادة الحياةِ حتى بلغتُ أرض الشارع ثم مضيتُ أعرج أو على الأصحّ أجُرُّ رِجْليْ جرّاً ناظراً فيما أمامي بعناد.

ويوماً بعد يوم رحتُ أستغرق فيما يشغلني عن ألمي، مُلتفتاً عن كلِّ ما يُذكِّرني به حتى خفّت حدّتُه وتباعدت نوباتُه. واستطعتُ أخيراً العودةَ إلى حياتي سعيداً بمواصلة ما قطعتُه من اهتمامات. واستوتْ مشيتي أو كادت. وركبتي؟ ما بها شيء!

ولقد لاحظتُ الناسَ قد بدأوا يسعَون في الشارع؛ مَن نجح بتجاهل علة ركبته مضى بحياته. أما مَن تملكه الجزعُ لزم بيته متوقّفاً بحياته عند ركبته.

وبينما كنتُ يوماً أسعى لشأني إذا بألمٍ عنيفٍ يهاجم ركبتي فأنطرح أرضاً غائباً عمّا حولي أتلوّى من الألم. ولمّا رجعتْ إليَّ نفسي لمحتُ شاباً غاضباً يعلوني بعكّازةٍ في يده، يكاد يهوي بها ثانيةً على ركبتي.

رفعتُ يدي لأتَّقيَ ضربتَه صائحاً به في رعب:

_ ماذا بك؟

عرفتُه. إنه ذلك الشابُّ راكبُ الدرّاجة. تراجعتْ يدُه بالعكازة فاستند بها إلى الأرض. إذّاك لمحتُ رجله اليمنى مقطوعةً فوق الركبة!

نسيتُ ألمي في فداحةِ مُصابه. وتحاملتُ على رِجْلي حتى وقفتُ أمامه. ثم سألتُه بإنكار وأنا أكتم ألمي في غيظٍ:

_ ماذا جرى لرجلك؟ لعلك تعتبرني مسؤولاً عما جرى لك!

فقال في أسى:

_ أتذكُر يومَ ابتعدتُ عنك بدراجتي؟ نجحتُ بتجاهل ملاحظتك أياماً. ولكنها ظلّتْ تُلحّ على خاطري حتى دبَّ الجزع في نفسي فمدَدْتُ يدي إلى ركبتي ونقرتُ عليها..

قاطعته صائحاً في ندم:

_ ليتك لم تفعلْ!

فقال في حقد:

_ بل فعلتُ عَمَلاً بنصيحتك! كشفتُ في ركبتي اليمنى عن ألمٍ خفيف سرعانَ ما ازداد حدّةً بمحاولة علاجه حتى جعلني قعيد الفراش لا أقوى على شيءٍ منشغلاً بعلاجه عن حياتي جميعاً. ولمّا استعصتْ ركبتي على العلاج، حاولتُ تجاهلها حتى أستطيع مواصلة حياتي. ولكني لم أنجح بتجاهلها؛ وظلّ الألم يُلح عليَّ..

وتنهّد في حرقة ثم عاد يقول:

_ انقطعتُ عن الحياة حتى اقتنعتُ أخيراً بأنني لن أستطيع مواصلة حياتي إلا إذا تخلصتُ من الركبة العليلة. فاشتريتُ حياتي بركبتي.

30 نيسان 2004

الشجرة الحسود

حرِّكي جِذعي أيتها الرياح. اقتلعيني من جذوري. واحمليني بعيداً، إلى أيِّ مكان.

يا لَشوقي إلى الحركة، إلى الانتقال عن هذه التربة اللعينة التي تتعقد حول جذوري شادّةً إيَّاي إلى الأرض. ولكنَّ الرياح لا تقوى على اقتلاع هذا الجذع الضخم العتيق، أو لعلّها لا تريد ذلك. عليها اللعنة! وهل تعبأ الرياحُ الرعناء التي تجوبُ الدنيا بشجرةٍ عجوز طال انغراسُها هنا أسفلَ التلةِ؟

من شدّةِ توقي إلى الحركة تمنَّيتُ في الشتاء الماضي أنْ يستمرَّ تساقُط المطر حتى تكتسحَني السيولُ، لعلّها تقتلعُني فتجرفني بعيداً. هطل المطر بغزارة. جرتِ الأرضُ سيولاً. غمرتِ المياه الجارفة جذعيَ الثقيل. وشيئاً فشيئاً أخذتُ أتخلَّص من الوحل الذي يُطوِّقني. شعرتُ بلذةِ التحرّر وأملتُ في الانطلاق الوشيك. ولا أُخفي أنَّه انتابني شيءٌ من القلق. ولكنّ التربة العنيدة أَبتِ الفكاكَ عني على الرغم من تمايلي العنيف. وبقيتُ مُنغرسةً حيث أنا أرتجف من الحنقِ، وأرقُبُ في حسدٍ أليمٍ صغارَ الشجر وقد جَرَفَها السَّيلُ فركبتْه في سرور أينما يأخذها في ترحالِه الشيِّق. وعندما غاض الماءُ وجدتُ أنّ جذوري الغليظة قد تعرَّتْ من التراب، فبدتْ كأنها مخالبُ كبيرةٌ ناشبةٌ في الأرض..

سَحْقاً لهذا العصفور، الساخر من جمودي. أَوَدُّ لو أخنقه بأحد أغصاني. يحطّ عليَّ في بطر. ويروح يتنقّل من غصنٍ لي إلى غصن، مُمعِناً في إغاظتي، ثم يطير عني في ضجر. فأهزّ وراءَه الغصنَ محاكاةً لرفرفة جناحَيه. ولكن أين أنا من خفَّته؟ وأدعو عليه أنْ يحطّ مرةً على إحدى تلك الشُّجيرات البعيدة التي يُفخِّخُها الصيَّادون بأغصان من دبقٍ، فيعلقَ ولا يستطيع طيراناً بعد!

وهذا النسيم ما أنكاه! يأتيني حاملاً إليَّ رائحة الأراضي البعيدة ليزيد من حُرقتي. أحاول أنْ أَسُدَّ مجراه لأمنعه من مواصلة رحلته. إلاّ أنه ينفذ من خلال أوراقي المُهلهلة مُطلقاً حفيفاً كالسخرية.

على أنني نجحتُ أخيراً في الانتقام من المُتحرِّكين. فقد جاءني أمسِ ذاك الولدُ يركض نحوي تيّاهاً بحُريَّة قدمَيه الرقيقتين. دار حولي شامتاً، ثم راح يتسلّقني ويَعلوني في قهرٍ وغلبة. شعرتُ

بالمهانة تحت قدميه الوقحتينِ وهما تدوسانِ العاليَ من أغصاني فالأعلى. فما كان مني، وقد غَلا الغيظ في جذعي، إلاّ أن كَسَرتُ الغصنَ تحت قدم الولد الشقيّ، فهوى وارتطم بالأرض . عند مخالبي الكبيرة . وتوقَّفتْ قدماه عن الحركة.

27 نيسان 2001

طبق البطاطا

رجع حامدٌ بعد الظهر من عمله جائعاً، وما كان ذاق لقمةً منذ الصباح. فحيَّا زوجتَه المنهمكة في المطبخ بإعداد طعام الغداء. ومضى إلى الحمّام فاغتسل في عجلةٍ، ثم هرول إلى حجرة المعيشة.

شعر بالخيبة في بطنه إذ وجد الطاولةَ لا تزال خالية من الأطباق المملوءةِ طعاماً. فجلس على كرسيِّه مُوصياً نفسَه بالصبر.

وبلغت أنفَه رائحةُ قلي البطاطا، أكلتِه المُفضّلة. فاتَّسع مَنْخِراه وهو يتشمَّم. وتحلَّبَ ريقُه. وتقلَّصتْ معدتُه تقلُّصاً مؤلماً كأنها تستصرخُه لِمَلْئها بالطعام. فاتَّجه برأسِهِ ناحيةَ البابَ المفتوحِ على الممشى المؤدِّي إلى المطبخ. وهتف بالمرأةِ جاهداً في تنقية نبراته من كلّ أثرٍ للاحتجاج:

_ متى تأتين إلى جانبي؟

ويبدو أنها فَقِهَتْ مقصدَه. فَرَدَّتْ عليه رافعةً صوتَها فوق وَشِّ المَقلى:

_ اطمئنَّ يا حامد. لن يطول اشتياقُك إلى الطعام!

هكذا كانت دائماً، صريحةً حادّة. بيد أنها جميلة. وهو يُحبّها ويتجنَّبُ إثارة غضبها. أما مهارتُها في الطهْي فيشهد بها خدّاه الريّانانِ، وكرشُه الآخذة في الانتفاخ.

حاول أن يتسلّى عن جوعهِ بالنظر في رسومٍ على غطاءِ الطاولة المُشمَّع تُمثِّل فاكهةً مختلفة الألوان. ولكنَّ ذلك ضاعَفَ من إحساسهِ بالجوع. ومَدَّ يدَه في دُعابةٍ إلى عنقودٍ من العنب مُحاولاً اقتطافَه من غصنِه المرسوم على الغطاء. ولكن من غير جدوى! ثمّ عَبَسَ نافخاً في غيظ.

وأخيراً جاءتِ المرأةُ بطبقٍ كبيرٍ من شرائح البطاطا المقليّة. فوضعتْه في وسط المائدة قائلةً:

_ بقي عليَّ تحضير السلطة.

ثم هرولت إلى المطبخ وهي تمسح كفَّيها بالوزرة على بطنها.

أضاء وجهُ حامد بالبهجة، وتلمَّظ وهو يُحدِّق في الطبق يتصاعد منه البخار الحار. إلاّ أنه لم يجرُؤ على مدِّ يده إليه. فإنّ هذه الحركة البسيطة كثيراً ما جرَّتْ عليه خلافاتٍ مريرةً مع زوجته: "ألا تعرف أنه من قلة الاحترام لي أن تبدأ بالأكل قبلي؟"

فالخير له أن ينتظرها صابراً متصبِّراً، وأن يكتفي في انتظارها بمصِّ شفتيه وبلع ريقهِ.. متى تأتي المرأةُ بالسلطة؟

هاهي تتعجَّل بخطواتها الرشيقة آتيةً بربطة الخبز والمملحة. فتضعهما على المائدة إلى جانب طبق البطاطا، مُلقيةً على الرجل الجالس نظرةً باسمةً تدعوه إلى الصبر، قبل أن تعود إلى المطبخ مرة أخرى.

لذَّ لحامد أن يتخيَّل ما كانتْ ستفعله لو لمحت يدَه تحاول الامتداد إلى الطعام أو لحظتْ فَمَه يتحرَّك بالمضغ. إذاً لتحوَّلتْ تلك الابتسامةُ عبوسةً واكفهراراً، وانقلب سكوتُها الراضي زعقاً وسُخْطاً!

ولكنه كان لا يزال يرمق الطبق باشتهاء: شرائح مستطيلة صفراء تفوح منها رائحة الإغراء الساخن. وحدّثتْه نفسُه بأن يُروِّض جوعَه بشريحةٍ صغيرة واحدة.

التفتَ ناحيةَ الباب. طمأنتْه طقطقةٌ آتيةٌ من المطبخ إلى غياب المرأةِ لحين. بسرعةٍ مَدَّ يدَه إلى البطاطا. التقط بإصبعيه شريحةً ساخنةً. وما رفَعَها إلى فيه حتى شعر بزوجتهِ واقفةً عند الباب تنظر إليه!

ضبطتْه. ما في ذلك شكٌّ.

لم تلتقِ عيناه بعينيها، ولكنه شعر بأنها تغلي من الحنق. كان من الحكمة أن يزدرد الشريحة حتى قبل أن يُتمَّ مضغَها، وأنْ يتراجع عن المائدة بصمت المُعترفِ بالذنب مُتمنِّياً أن تُغضيَ المرأةُ عن تجاوزه. إلاّ أنّ حامداً . وقد استفزَّه الجوعُ الثائرُ . واصَلَ الأكلَ هذه المرّةَ من غير أن يلتفت إليها، ولكنْ بلا شهيّةٍ ولا طعم. ها هي المرأة تتقدَّم منه في هدوءٍ كالتوثُّب. ثم قالتْ بصوتٍ مُنذرٍ بالانفجار:

_ ألا تنتظر حتى آتيَ فنأكلَ معاً؟

فأجاب وهو يتناول شريحةً أخرى وقد جفَّ ريقهُ بتوقُّع معركة:

_ تقصدينَ: حتى تسمحي.

ذهلت للهجةِ الجديدة. فجمدتْ تنظر إليه. ولكنَّ استمرارَه في الأكل بتلذُّذٍ وتحدٍّ . كما بدا لها . أطارا عقلها فضربتْ بيدها الطبق فانقلب عن الطاولة وتناثرتْ شرائح البطاطا على الأرض. وصاحتْ به:

_ لا تأكُلْ وأنا أكلِّمُك!

تلقّى حامد ذلك بهدوءٍ ظاهرٍ وهو يُداري ارتعاداً من صياحها. ثم تمتم في تسليم:

_ لا بدَّ مِمّا ليس منه بُدٌّ..

وقام عن كرسيِّه فانحنى وتناول الطبق المقلوبَ الذي لم ينكسر لحسن الحظ، وراح يلتقط شرائح البطاطا المتناثرة على الأرض ويُعيدها إلى الطبق. أما المرأة فوقفتْ ترقُبُه عابسةً. وإذ بها تسألُه بازدراءٍ وقرف:

_ كيف تلتقط الشرائح من الأرض وقد تلوَّثت؟

فأجابها بلهجة الحكيم وهو يرفع شريحةً ويمسح عنها ما عَلِق بها من ذرّات الرمل:

_ الأرض لا تُلوِّث الطعام. ولكننا نحن الذين نُلوِّثه بشجارنا!

ووضعها في الطبق. ثم جثا على ركبتيه تحت الطاولة. وراح يتلفَّتُ . والطبقُ في يده . باحثاً عن شرائح البطاطا المتبقِّية.

وراءَ رِجْل الكرسيِّ عثر بشريحتين. ومن تحت الكنبة استخرج شريحةً. وفي الزاوية وجد أخرى. فَوَضَعها جميعاً في الطبق وهو يَعْجَبُ لاهثاً لتشتُّتها هذا التشتُّتَ البعيد. وأزاح حاملة الجرائد فلم يجد وراءها شيئاً. ثم وقع بصرُه على شريحةٍ صغيرةٍ تلتمع بالزيت عند قَدَمَي زوجته. فمدَّ يَدَه لالتقاطها. غيرَ أنّ المرأة انتبهتْ لحركتِه، فركلتِ الشريحة بعيداً عنه نكايةً وتشفِّياً. ولكنَّ الرجلَ وَثَبَ إلى طعامِه لا يردّه شيء. فما كان من المرأة إلاّ أن انقضَّتْ بيدها كالعُقاب على الشريحة تريد حرمانه إيّاها. فكاد حامد يصدم رأسَه برِجْل الطاولةِ الغليظة قبل أن يخطف الشريحة في الوقت المناسب. وارتطمتْ أصابعُ المرأة . المُسلَّحةُ بأظافرَ طويلةٍ حادّة . بالأرض. فانكسر أحدُ أظافرها وارتدَّتْ وهي تصرخ من الألم والغيظ. أما الرجل فَوَضَع الشريحة الشهيّة في طبقه ظافراً.

أَتمَّ حامد تجميع شرائح البطاطا، أو أنه جَمَّع منها ما يكفي حتى امتلأ الطبق في يده. فنهض قائماً وهو يمسح العرق عن جبينه في ارتياح. ثم وضع الطبق وسْطَ المائدةِ وجلس وهو يقول بسماحةٍ لزوجته الواقفة تعالج ظفرَها المكسور في تألُّمٍ وندمٍ:

_ هلاّ جلستِ الآن لنأكل!

27 آذار 2004

تمت

الطبعة الاولى الورقية لهذا الكتاب كانت في تموز 2004 دار عشتروت للنشر والطبع والتوزيع
ISBN 9953-0-0310-6

تنسيق وتنفيذ النسخة الإلكترونية الاولى في صيغة PDF
بلال الحسيني bilalo25@gmail.com
شباط 2017